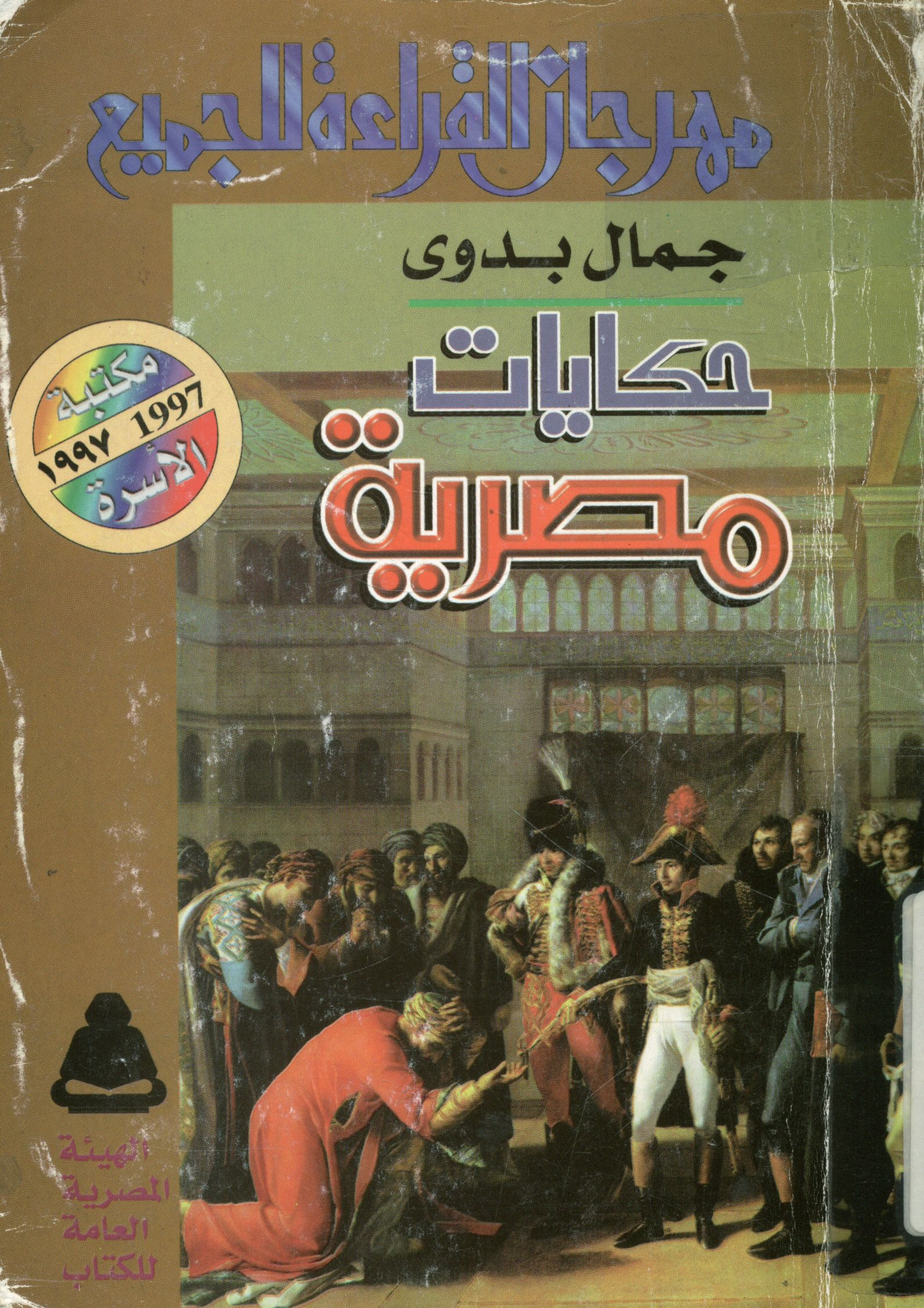

مهرجان القراءة للجميع
جمال بدوى
حكايات
مصرية
مكتبة الأسرة
1997 ١٩٩٧
الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

حكايات مصرية

حكايات مصرية

جمال بدوى



مهرجان القراءة للجميع ٩٧
مكتبة الأسرة
برعاية السيدة سوزان مبارك
(الأعمال الخاصة)

حكايات مصرية
جمال بدوى

الغلاف
الإشراف الفنى:
للفنان محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب



مقدمة

وهكذا تمضى مسيرة مكتبة الأسرة لتقدم فى عامها الرابع تسع سلاسل جديدة تضم روائع الفكر والإبداع من عيون كتب الآداب والفنون والفكر فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية، تروى تعطش الجماهير للثقافة الجادة والرفيعة، وتنضم إلى مجموعة العناوين التى صدرت خلال الأعوام الثلاثة الماضية لتغطى مساحة عريضة من بحور المعرفة الإنسانية، ولتقطع بأن مصر غنية بتراثها الأدبى والفكرى والإبداعى والعلمى، وان مصر على مر التاريخ هى بلاد الحكمة والمعرفة والفن والحضارة .. عبقرية فى المكان وعبقرية الإبداع فى كل زمان.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم...

مكتبة الأسرة ٩٧ رسالة إلى شباب مصر الواعد تقدم صفحات متألقة من متعة الإبداع ونور المعرفة مصدر القوة في عالم اليوم..

صفحات تكشف عن ماضينا العريق وحاضرنا الواعد وتستشرف مستقبلنا المشرق.

د. سمير سرحان

عنزة السيدة نفيسة

بات المجتمع المصرى، خلال العصرين المملوكى والعثمانى نهبا للخرافات والخزعبلات والأساطير التى كانت تنسجها عقول خبيثة تستغل سذاجة الناس وضحالة وعيهم وتستنزف ما فى جيوبهم وقد استيقظت القاهرة ذات صباح على قصة خرافية تزعم أن عنزة صعدت فوق مئذنة مسجد السيدة نفيسه رضى الله عنها وأخذت تكلم الناس وتحضهم على فعل الخيرات وتحذرهم من ارتكاب الموبقات وتطورت القصة بعد أن تناقلتها ألسنة العوام فاضافوا إليها بعض التوابل والمشهيات واكتملت لها عناصر الإثارة والتشويق واستقرت القصة فى الشارع المصرى على النحو التالى كما رواها الجبرتى:

كان بعض الجند المصريين قد وقعوا أسرى الحرب فى بلاد الفرنجة، وذات يوم اشتروا عنزة ليذبحوها فى مجلس

الذكر الذى عقدوه قربانا إلى الله كى يفك أسرهم ويعيدهم إلى ديارهم، ولكن الحارس القائم على أمرهم أبى عليهم ذلك واستولى على العنزة ومضى بها إلى بيته. فلما آوى إلى فراشه رأى فى منامه رؤيا مزعجة فأدرك على الفور أن العنزة مباركة، فلما أشرق الصباح أعاد العنزة إلى الجند ثم أطلق سراحهم وزودهم ببعض المال كى يستعينوا به على الرحيل إلى بلادهم، فاستقلوا مركبا إلى مصر ومعهم العنزة المباركة، فلما بلغوا القاهرة ذهبوا من فورهم إلى مسجد السيدة نفيسة وقضوا ليلتهم بجوار ضريحها وفى الصباح وجدوا العنزة قد اعتلت المنارة وسمعوها تكلم الناس، وكان للمسجد خادم ذكى اسمه الشيخ عبداللطيف أدرك الفائدة العظمى التى ستعود عليه من ترويج قصة العنزة فأشاع بين رواد المسجد أن السيدة نفيسة خاطبته من مقصورتها وأوصته بالعنزة خيرا، وذاعت الخرافة بين أهل القاهرة فتوافدوا على المسجد لرؤية العنزة والتبرك بها والتبرع لها بما تجود به أريحيتهم وانفتح باب الرزق الرغيد أمام الشيخ عبداللطيف فوضع تسعيرة محددة لكل درجة من درجات القرب من العنزة أدناها الرؤية المجردة وأعلاها المسح على جسمها والحصول على بركاتها، وانهالت الهدايا والنذور على الشيخ عبداللطيف فكان يخبرهم بأن العنزة لا تأكل إلا قلب اللوز والفستق ولا تشرب إلا ماء الورد المحلى

بالسكر المكرر، فيحمل الناس إليه أطنانا من هذا وذاك حتى تكدست لديه أكوام من أطايب الطعام والشراب، وبلغت القصة مسامع الاميرات وزوجات الكبراء والقادة فكن يتسابقن إلى صنع القلائد الذهبية والأقراط والأساور ويبعثن بها إلى الشيخ عبداللطيف ليزين بها جسد العنزة المباركة.

* * *

وكان الأمير عبدالرحمن كتخدا من أشد الأمراء حزما وحسما واكثرهم وعيا ورفضا لهذه الخزعبلات فأرسل إلى الشيخ عبداللطيف يرجوه أن يتعطف بزيارته فى قصره وبصحبته العنزة حتى يتمكن أهل بيته من رؤيتها والتماس البركة منها، وسعد الشيخ عبداللطيف بهذه الدعوة التى ستفتح أمامه قصور الأمراء والكبراء.. وحدد يوما لهذه الرحلة الميمونة فتجمع أرباب الطرق الصوفية فى موكب مهيب لمصاحبته من مسجد السيدة نفيسة إلى قصر الأمير كتخدا المجاور لمسجد أحمد بن طولون وامتطى الشيخ عبداللطيف بغلته وحمل العنزة فى حجرة تحيط به الأعلام والبيارق وتتقدمه الطبول والزمور.. وتهادى الموكب عبر شوارع الصليبة وسوق السلاح والناس يتجمعون من كل أنحاء القاهرة لرؤية العنزة المباركة وهى تتربع فى دهشة من هذا الحشد

الغريب ولا تدرى شيئا مما يدور حولها حتى إذا بلغ الموكب باب القصر نهض الأمير هو وضيوفه من العظماء والوجهاء لاستقبال العنزة المباركة، واستأذن الأمير فى أن تمضى العنزة إلى جناح الحريم فرحب الشيخ عبداللطيف واعطاه العنزة فحملها الخدم إلى المطبخ حيث ا نهالت عليها سكين الجزار فذبحتها وسلختها وتسابق الطباخون إلى سلقها وتحميرها، بينما إتخذ الشيخ عبداللطيف مكانه فى صدر المجلس يروى للأمراء مزيدا من الخرافات عن كرامات العنزة.

* * *

وحان موعد الغداء فأمر كتخدا بمد السماط، فدخل الخدم يحملون أطباق الفتة تعلوها هبر من اللحم الشهى.. وانهالت أدى الأمير وضيوفه تنهش أطايب اللحم.. وبين الحين والحين كان الأمير يحث الشيخ عبداللطيف على تناول المزيد من اللحم قائلا: كل يا شيخ عبداللطيف هذه القطعة السمينة.. فيلتهمها الرجل ممتنا.. والأمراء من حولة يتغامزون ويكتمون ضحكاتهم، حتى فرغوا من الطعام وشرب القهوة فنهض الشيخ عبداللطيف مستأذنا فى الانصراف ومعه العنزة. فقال له الأمير عبدالرحمن.. أى عنزة تقصد؟؟

فقال خادم المسجد: العنزة المباركة التى دخلت جناح الحريم!

فقال الأمير: العنزة لم تدخل جناح الحريم مطلقا.. ولكنها دخلت بطنك يا كاذب.. يا فاجر.. يا أفاق.. وهذا دليل على ضلالك المبين.

* * *

وبهت الرجل من هول المفاجأة التى وقعت على رأسه كالصاعقة.. وحاول الإفلات بجلده.. ولكن الأمير أمسك بخناقة وأمر مماليكه بضربه ستين عصا على رجليه.. ثم أمر بجلد العنزة فطرحه على عمامته وطاف به الجند شوارع القاهرة ليكون عبرة لغيره من الأفاقين والنصابين الذين يحتالون على الناس بالأساطير التى تستغل عواطفهم الدينية.. والدين منها براء.

سلطان المادحين

لا أذكــر أننى ذهبت إلى الإسكندرية دون أن تقــودنى قدماى إلى تلك البقعة الطاهرة من أرضـها، حيث تتلاصق المساجد العتيقة وتنطلق المآذن السامقة كأنها القلاع الساهرة على حماية المدينة.. فهذا مسجد مولاى أبى العباس المرسى سيد الثغر وحارسه بلا منازع، وإلى جواره مسجد تلميذه ومريده سيدى أبى عبدالله شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد بن محسن البوصيرى، الذى يعرفه العامة باسم «الأباصيرى».

ولا أذكر أننى دخلت مسجد البوصيرى دون أن تكتحل عيناى بقراءة «بردته» المسطورة بماء الذهب على جدران المسجد- ولا أذكر أننى قرأت البردة أو سمعتها إلا انسابت من عينى الدموع.. وأرتج القلب واهتز الوجدان.. احتراما وتعظيما وخشوعا لمقام سيدى وسيد البشر أجمعين محمد بن عبدالله

صلوات الله وسلامه عليه.

البردة: تلك المنظومة التى فتح الله بها على صاحبها فى لحظة من لحظات التجلى، فدخلت قلوب المؤمنين فى كل أرجاء الأرض، وشعشعت فى نفوسهم كما يشع النور فى جنبات الظلام.. من منكم يسمع البردة دون أن يهيم اشتياقا إلى الملأ الأعلى، ويحن حنينا إلى عالم الطهر والنور.. نحن لسنا بإزاء أبيات من الشعر مرصوصة وهزيلة كما تبنى البيوت فى أيامنا.. ولكننا بإزاء عاشق عفيف جرفه الحب الإلهى، فغاص فى بحر الحقيقة وعاد لينثر أمامنا هذه اللآلئ المشعة حبا وجمالا.. رجل كانت متعته الوحيدة فى هذا العالم مدح الرسول، والتقرب إلى الله بهذا الحب المستكن فى شغاف القلب:

هو الحبيب الذى تُرجى شفاعتهُ	لكل هول من الأهوال مقتحم
ومبلغ العلمِ فيه أنه بشرٌ	وأنّه خير خلقِ الله كلهم

ولا تحسبن البردة هى القصيدة الوحيدة التى صاغها البوصيرى فى مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم. فهو صاحب «الهمزية» التى مطلعها:

كيف ترْقى رُقِيَّكَ الأنبياءُ	يا سماء ما طاولتْها سماء

وكان يعلم أن كعب بن زهير قد حظى بالشرف الأسنى عندما ألقى قصيدته الشهيرة أمام الحضرة النبوية الشريفة، والتى مطلعها (بانت سعاد فقلبى اليوم متبول)، فتهفو نفس البوصيرى إلى هذا المقام الشريف. وتشرئب روحه إلى الطلعة المحمدية فينشئ قصيدة على الوزن والقافية نفسيهما اللذين صاغ بهما كعب قصيدته ويسميها (ذخر المعاد فى معارضة بانت سعاد) ويقول فى مطلعها:

إلى متى أنت باللذات مشغولُ وأنتِ عن كل ما قدمتَ مسئولُ
فى كل يوم ترجى أن تتوبَ غدا وعقدُ عزمِك بالتسويفِ محلول

وتمضى الأيام، وينتظر الرجل لحظة التجلى، كى يطفئ لواعج الظمأ الذى يكوى فؤاده.. ولكن الأيام تمضى ولا يدرك مناه.. فيعلم أنه لا يزال مشغولا بأمور الحياة.. وأن عزيمته لا تزال فى حاجة إلى مجاهدة ورياضة.. فلا ييأس.. وإنما يزداد قربا وتوسلا من الحبيب بقصيدة مطلعها:

أمدائح لى فيك أم تسبيح لولاك ما غفر الذنوب صفوح

ومرة أخرى، يطول ليل الرجل، ويتضاعف عذابه، وتثقل الهموم قلبه ويعلم أنه لا سبيل إلى غايته إلا بالتجرد عن متاع الدنيا.. فيهاجر إلى الله بقلبه ووجدانه.. عندئذ تتجلى له أنوار

الحقيقة.. ويشعر البوصيرى بأنه ولد من جديد.. ويطلق البوصيرى على قصيدته «البردة» تشبها بما فعله كعب، وتطلعا إلى القرب من الذات النبوية..

يقول الرواة إن البوصيرى نظم قصيدته، بعد أن أصيب بالشلل، واستشفع بها إلى النبى وإلى الله أن يعافيه.. وكرر إنشادها.. ثم نام.. فرأى النبى صلى الله عليه وسلم يمسح على وجهه بيده المباركة، وألقى عليه البردة.. فانتبه.. فإذا بالحياة تدب فى جسمه المشلول..

لقد كان الإمام البوصيرى موصول الصلة بالسماء.. ولكنه لم يكن مقطوع الصلة بدنيا الناس.. فبعد تخرجه فى الأزهر عمل موظفا بجهاز جباية الضرائب فى مدينة بلبيس، كبرى مدن الشرقية، فى القرن السابع الهجرى.. وهى وظيفة تغرى من يشغلها بأن يصبح من أصحاب الثراء العريض بين عشية وضحاها.. ولكن البوصيرى - الشاعر الصوفى الرقيق - كان يحمل بين جنبيه قلبا يقظاً وضميراً حيا ويدا عفيفة.. فنشأ من كل ذلك حجاب بينه وبين المال الحرام.!

ولكن يبدو أنه كان من الصعب على موظف صغير يتمتع بهذا السمو الخلقى أن يمكث طويلا بين حيتان البيروقراطية المصرية التى تستحل الرشوة والاختلاس وترى فى نهب أموال

الدولة عـمـلاً مـشـروعـا، لا يوقع صـاحـبـه فى دائرة الإثم والتجريم.. فترك البوصيرى جهاز الضرائب، وتقلب بين عدد من الوظائف الحكومية، عساه أن يجد الوظيفة التى تكفل له حياة شريفة فى إطار القيم التى يعتنقها.. ولكن موجة الفساد الإدارى التى انتشرت فى العصر المملوكى، لم تحقق له أمنيته.. فترك سلك الحكومة، واتجه إلى العلم والفقه، بعد أن سجل تجربته فى هذه الأبيات:

خبرتُ طوائفَ المستخدَمينا	فلم أرَ فيهمو رجلا أمينا
فكتّاب الشمالِ همو جميعا	فلا صَحِبتْ شِمالهم اليمينا
فكم سرقوا الغلال وما عهدنا	بهم فكأنما سرَقوا العيونا

* * *

ولكن الشاعر الزاهد لم يجد مبتغاه فى مجتمع العلم والعلماء.. واصطدم بتلك الزمرة الفاسدة من أدعياء العلم وتجار الدين، واكتشف أن هذا المجتمع لا يختلف كثيرا عن سابقه.. فضاقت نفسه بضعاف النفوس من ذوى الضمائر الميتة الذين يسخرون علمهم لمن يدفع، ويؤولون نصوص الشرع خدمة لأصحاب الجاه والمال.

عندئذ أدركه اليأس من إصلاح الحال، فهاجر بدينه إلى الإسكندرية ليجد الملاذ والأمان والسكينة عند أستاذه ورائده

أبى العباس المرسى.. وكانت تلك بداية الطريق الصحيح لمن أراد أن يعيش طاهرا فى مجتمع الذئاب.

وللبوصيرى قصائد طريفة، فى وصف أدعياء العلم لا تخلو من روح الفكاهة والسخرية.. وإليك نموذجا منها:

تنسك معشرٌ منهم وعُدُّوا   من الزهاد والمتورعينا
وقيل لهمْ دعاء مستجاب   وقد ملئوا من السُّحتِ البطونا
وما أخشى على أموال مصر   سوى من معشرٍ يتأولونا

وأنت تلمس فى هذه الأبيات روح السخرية والتنكيت التى كانت ظاهرة واضحة عند كل شعراء مصر الصوفيين.. لقد كانوا على درجة رفيعة من الزهد والورع والتقوى والصلاح.. ولكنهم لم يتخلصوا من مصريتهم الأصيلة فى حب الدعابة والمرح.. وليس أدل على ذلك من تلك القصيدة الطريفة التى نظمها الشاعر الصوفى العظيم عبدالعزيز الدرينى، وحكى فيها متاعبه وأوجاعه لزواجه من امرأتين، ظنا أنه سينهل من بحر العسل.. ولكنهما اجتمعتا عليه وأذاقتاه طعم الحنظل:

تزوجتُ اثنتين لفرط جهلى   عسى بزواجهن تُسر عينى
فقلت أعيش بينهما خروفا   أنعم بين أكرم نعجتين

فجاء الحال عكس الحال دوما عذابا مؤلما بين اثنتين
رضا هذى يحرك سخط هذى نقار دائم فى الليلتين
إذا ما شئت أن تحيا سعيدا من الخيرات مملوء اليدين
فعش عزبا وإن لم تستطعه فواحدة تكفى عسكرين

وجهـا لوجـه..!

كان الصراع بين مؤرخنا عبدالرحمن الجبرتى ، ومؤسس مصر الحديثة محمد على باشا ، صراعا حتميا لا يمكن تلافيه.. إنه الصراع الأزلى بين أنصار الحق والعدالة والحرية واحترام الكرامة الإنسانية ، وأرباب القوة الغاشمة ، الذين يستبيحون الحريات ويمتهنون العدل ، ويبطشون بالحقوق العامة من أجل بناء الدولة القوية .. ثم لا يلبث البنيان أن ينهار وتتقوض أركانه ، لأنه خلا من اللبنة الأساسية : قوة الإنسان الفرد التى تتجلى فى مناخ الحرية والإحساس بالعدل وتنكمش ثم تزول تحت نير الاستعباد والقهر والاستبداد.

تلك هى عبرة التاريخ على مدى العصور منذ وجد حكام مستبدون ومحكومون ضعاف ، وذلك هو جوهر الصراع بين مؤرخنا المستنير ، وحاكمنا الطاغية ..

لقد عايش الجبرتى عهود الظلم ، ممثلة فى المماليك والعثمانيين والفرنسيين ، ولقد داعبه الأمل فى زوال هذه الصفحة الكئيبة بعد أن يختار المصريون حاكمهم بإرادتهم وروادت خواطره أحلام وردية فى عهد جديد ، يسلك فى الرعية مسلك العدل والرفق .. وربما خدعته الوعود التى سكبها الثعلب الألبانى فى أذن زعيم الشعب الطيب عمر مكرم، وليس من المؤكد أن الجبرتى كان واحداً من أهل الحل والعقد الذين صعدوا إلى القلعة فى مايو ١٨٠٥ ، ليثبتوا محمد على على عرش مصر ، ولكن المؤكد أنه كان واحداً من جمهرة العلماء الذين أحسنوا الظن بالعهد الجديد ، وانتعشت آمالهم فى حكم جديد يغاير النظم السابقة التى أسرفت فى الظلم والطغيان.

ولكن .. كم كانت خيبة الأمل عنيفة مدمرة .. وهم يرون أحلامهم فى العدل تتبدد!! فالحاكم الجديد لم يكن سوى نسخة معدلة من الطغاة السابقين .. يسلك نفس مسلكهم فى البطش . بل يفوقهم فى سعة الحيلة والدهاء والخبث .. شيئاً فشيئاً أصبح هو المالك الوحيد لكل مقدرات مصر .. بدءاً من رقاب البشر .. وانتهاء بالدراهم الشحيحة التى تدخل جيوبهم بعد شقاء النهار الطويل .. وأكتشف الفلاحون أنهم لم يتحرروا من ذل العبودية القديم، وأن نتاج كدهم وتعبهم هو حق

مسلوب لحساب الحاكم ، فماذا يفعلون؟! هربوا .. تركوا الأرض قاحلة وهاجروا إلى المدن ليعملوا فى المهن الحقيرة .. فلما تعقبهم كرباج الحكومة ، زحفوا إلى الشام فى هجرة جماعية ، كانت سببا فى حملة عسكرية شنها محمد على ، لتعود بالفلاحين الهاربين ومعهم والى عكا - أحمد الجزار - عقابا له على إيوائه لهذه الجحافل الجائعة ..

كان محمد على يريد إنشاء دولة حديثة قوية .. ووضع خطة طموحة لإقامة العديد من المشروعات الكبرى، مثل شق الترع والمصارف وبناء السود والقناطر ولكنه لم يبذل أدنى اهتمام بالانسان المصرى الذى يقوم بتنفيذ هذه المشروعات .. كان الوالى يستخدم السخرة والكرباج فى إجبار المصريين على العمل فى ظروف بالغة القسوة .. كان الآلاف يهلكون جوعا وضنكا وإعياء!! .. فما قيمة المشروعات إذا أهدرت آدمية المواطن؟! وكان محمد على يسعى إلى إنشاء جيش قوى من الفلاحين المصريين .. وهذا هدف قومى جليل .. ولكن كيف يمكن الفصل بين الهدف والوسيلة؟ وكيف يمكن الاطمئنان إلى الروح المعنوية لهذا الجندى ، ونحن نعلم الوسائل الوحشية التى كان محمد على يسلكها فى تجنيد الفلاحين؟ وكيف كانت قواته الكاسرة تهبط على القرية كالصقور الجارحة فتأسر كل من يقع فى يديها من رجال

وشيوخ ونساء وأطفال ، ثم تسوق الجميع في حبال غليظة إلى مراكز التجنيد في المدن ..؟!! وكان محمد على في حاجة إلى المال ، فلم يترك سبيلا من سبل التحايل إلا سلكه ، حتى جعل من نفسه شريكا لكل صاحب حرفة مهما بلغت دناءتها وتلفت المصريون فوجدوا أنفسهم في غاية الضيق والفاقة ، فلما ذهب العلماء - أهل الحل والعقد - ليذكروا الحاكم بوعوده السابقة ، لم يجدوا منه سوى الازدراء الذى تحول بعد قليل إلى حركة رجعية لإخماد كل صوت معارض ، وتقريب كل منافق جهول من أجلاف الأرمن والترك واليهود.

عندئذ صاح الجبرتى ، على لسان الأمير الشهير محمد بك الألفى وهو يلقى سلاحه الأخير ، ويودع الحياة مقهوراً ، فخرج إلى ربوة عالية على مشارف شبراخيت ، وتلفت إلى الأفق الدامى قائلاً : «يا مصر . انظرى إلى أولادك وهم حولك مشتتون ، متباعدون ، مشردون ، واستوطنك أجلاف الأتراك واليهود وأراذل الأرنئود ، وصاروا يقبضون خراجك ، ويحاربون أولادك ويقاتلون أبطالك ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك ، ويفسقون بولدانك وحورك ، ويطمسون بهجتك ونورك»!! ولم يزل الألفى يردد هذه المرثية حتى تحرك به خلط دموى .. ثم تقيأ دما ..

فكانت آخر كلماته: «قضى الأمر.. وخلصت مصر لمحمد علي.. وما ثمّ من ينازعه ويغلبه..».

ماذا كان موقف الجبرتي ، وهو يرى آماله في النظام الجدد قد خابت؟ هل كان عسيراً عليه أن يساوم .. أو يداهن .. أو يجاري الحاكم المستبد الذي يرتكب الظلم بحجة بناء الدولة القوية؟!

أجل .. كان عسيرا على الجبرتي ، الحالم دائماً بأطياف العدل ، والكاره أبدا لكابوس الظلم ، أن يساوم على مبادئه . فكانت القطيعة النهائية بين قطبين متنافرين - على حد وصف المؤرخ الكبير أحمد خاكي - أحدهما يمثل أسمى ما وصلت إليه فكرة العدل في الإسلام .. بل في تاريخ الأمم ، لدرجة أنه كان يرى أن ما نزل بعشيرته وأهله المصريين من بلاء «إنما سببه أنهم لم يرعوا حدود الله ، ولم يقفوا في وجه الجبارين . فلقوا جزاء ما قدمت أيديهم .. وما ربك بظلام للعبيد» . أما القطب الآخر فيمثل «القوة» بمعناها الغشوم: قوة السلاح والدماء والخبث ، وهي القسوة التي آلت إلى العناصر التركية التي سيطرت على دار السلام ، منذ سقوط الخلافة العابسية ، ولم يكن لها مصلحة سوى استنزاف موارد البلاد ؛ فهي قوة

لا تعرف الرحمة أو الشفقة بالرعية . وكان محمد على آخر العنقود فى هذه السلسلة الحديدية .

وفى ضوء هذا التنافر ، ينصحنا الأستاذ خاكى بأن ننظر إلى الرجلين كممثلين للحضارة الإسلامية ، الأول يمثل خير ما خلص له من الشريعة فى سياسة الناس والثانى يمثل أكثر الوسائل فعالية ـ فى نظره ـ الحكم شعب لا حول له ولا قوة .

وسوف نلاحظ أن هذه القطيعة بين الحاكم المستبد ، والمحكومين الضعاف الجهلة ستسرى فى تاريخ مصر طوال القرن التاسع عشر وما بعده ، حيث كان المصريون ـ على حد وصف سعد زغلول ـ ينظرون إلى الحكومة نظرة الطائر إلى صائده .. لا نظرة الجندى إلى قائده .

الأفندية فى باريس

كان محمد على الكبير ، رائد الاستنارة العقلية والثقافية لمصر الحديثة ، رغم أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب .. فهو الذى وضع بيده البذرة الأولى ، التى أينعت وأثمرت تلك الشجرة الفيحاء ، التى أفاءت على مصر ظلال العلم والعرفان. وهو الذى شيد صرح التعليم الحديث ، ممثلا فى مئات المدارس الابتدائية والتجهيزية (الثانوية) والعالية ، وتكونت من خريجيها طليعة الطبقة المثقفة التى صنعت مجد مصر . ولا ننكر أن محمد على هو الذى حرر أولاد الفلاحين المصريين، من ظلام الجهل الذى ضرب عليهم قرونا طويلة، وهو الذى ساقهم - بالترغيب حينا وبالترهيب حينا آخر - إلى المدارس العالية ، ليتعلموا فنون الهندسة والطب والزراعة والميكانيكا والطباعة والحفر والطبيعة والكمياء .. بعد أن كان قصارى حظهم من التعليم أن يترددوا على الكتاتيب ليحفظوا

القرآن الكريم ، ويتلقنوا مبادىء الكتابة والحساب .. ثم لا يلبثوا أن يرتدوا إلى ظلام الأمية بعد حين . أما من أسعده الحظ منهم بالمجاورة فى الأزهر ، فكان جل حصيلته قشوراً من العلوم الشرعية ، لا تسمن ولا تغنى من جوع ، ولا تفلح فى صناعة عالم .

أدرك محمد على - هذا الجندى المغامر - أنه لا سبيل أمامه لبناء مصر الحديثة ، إلا بالاعتماد على سواعد أبنائها ، بعد أن خذله الترك وتآمر عليه المماليك ، وأدرك أن السبيل الوحيد لنهضة المصريين ، هو خلق طبقة من أبنائهم تتعلم أسرار التقدم . فانتقى النوابغ من خريجى المدارس ، وبعث بهم إلى أوربا ليكتشفوا هذا العالم الذى تحرك من حولهم وهم قعود ، ثم عادوا ليكونوا نواة الطبقة المثقفة التى قادت حركة التنوير .

وبلغ من اهتمام محمد على ، بأعضاء البعثات ، أنه كان يتقصى أخبارهم ويتتبع سلوكهم وتصرفاتهم وهم فى بلاد الغربة ، ويواليهم بالنصائح والإرشادات ، مثلما يفعل الأب الحريص على مستقبل أولاده . ويكتب إليهم بين الحين والحين رسائل يستحثهم فيها على الاجتهاد والتفرغ للتحصيل، حتى يعودوا إلى وطنهم وهم على أحسن حال . وهذه رسالة

أوردها رفاعة رافع الطهطاوى - الرائد الدينى للبعثة الأولى - فى كتابة المشهور «تخليص الإبريز فى تلخيص باريز» وتلمس فيها قلق الأب الذى ينتظر عودة ابنه وعلى رأسه تاج العلوم :

«قدوة الأماثل الكرام ، الأفندية المقيمين فى باريس ، لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم ، ننهى إليكم أنه قد وصلنا أخباركم الشهرية ، والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم ، وكانت هذه الجداول المشتملة على شغلكم «ثلاثة أشهر» مبهمة لم يفهم منها ماحصلتموه فى هذه المدة ، وما فهمنا منها شيئاً ، وأنتم فى مدينة مثل مدينة باريس التى هى منبع العلوم والفنون ، فقياسا على قلة شغلكم فى هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم . وهذا الأمر غمنا كثيراً ، فيا أفندية ماهو مأمولنا منكم ، فكان ينبغى لهذا الوقت أن كل واحد منكم يرسل لنا شيئاً من ثمار شغله وآثار مهارته . فإذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة ، وجئتم إلى مصر بعد قراءة الكتب ، فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون ، فإن ظنكم باطل فعندنا ولله الحمد والمنة ، رفقاؤكم المتعلمون يشتغلون ويحصلون الشهرة ، فكيف تقابلونهم إذا جئتم بهذه الكيفية وتظهرون عليهم كمال العلوم والفنون ، فينبغى للإنسان أن يتبصر فى عاقبة أمره ، وعلى العاقل ألا يفوت الفرصة وأن

يجنى ثمرة تعبه ، فبناء على ذلك ، إنكم غفلتم عن اغتنام هذه الفرصة ، وتركتم أنفسكم للسفاهة ، ولم تتفكروا في المشقة والعذاب الذى يحصل لكم من ذلك ، ولم تجتهدوا في كسب نظرنا و توجهنا إليكم لتتميزوا بين أمثالكم . فإذا أردتم أن تكتسبوا رضاءنا ، فكل واحد لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون وبعد كل ذلك واحد منكم يذكر ابتداءه وانتهاءه كل شهر ، ويبين زيادة على ذلك درجته فى الهندسة والحساب والرسم ، وما بقى عليه فى خلاص هذه العلوم ويكتب فى كل شهر ما يتعلمه فى هذا الشهر زيادة على الشهر السابق ، وإن قصرتم فى الاجتهاد والغيرة ، فاكتبوا لنا سببه . وهو إما من عدم اعتنائكم أو من تشويشكم . وأى تشويش لكم : هل هو طبيعى أو عارض ، وحاصل الكلام أنكم تكتبون حالتكم كما هى عليه حتى نفهم ما عندكم ، وهذا مطلوبنا منكم ، فاقرءوا هذا الأمر مجتمعين ، وافهموا مقصود هذه الإرادة ، وقد كتب هذا الأمر فى ديوان مصر فى مجلسنا فى الإسكندرية بمنة الله تعالى» .

حادث على النيل

كانت زيارة السلطان عبدالعزيز ، خليفة المسلمين وامبراطور الدولة العثمانية لمصر عام ١٨٦٣ حدثا جليلا لا تزال ذكراه ماثلة فى الشارع الذى يحمل اسم «عبدالعزيز» والممتد بين ميدان العتبة وميدان عابدين ، وظل أحد أهم شرايين الحركة التجارية فى القاهرة حتى منتصف القرن الحالى. وكانت هذه أول زيارة يقوم بها سلطان عثمانى لمصر منذ أفتتحها سليم الأول بقائم سيفه عام ١٥١٧ ، وتحولت مصر من يومها إلى إيالة تركية يحكمها والٍ قادم من الآستانة ، بعد أن كانت دولة مستقلة ذات نفوذ وسلطان يمتد شمالا إلى حلب، وجنوبا إلى منابع النيل ، وشرقا إلى اليمن والخليج .

وقد أراد الخديو إسماعيل ان يجعل من زيارة سيده الخليفة فرصة يشاهد خلالها معالم الحضارة المصرية الحديثة ، وفى طليعتها قطار السكة الحديدية الذى استقله السلطان هو وحاشيته

من الإسكندرية إلى القاهرة ، فانبهر به انبهارا عظيما، إذ كانت المرة الأولى التى يرى فيها السلطان مثل هذه الاعجوبة التى تتحرك على قضبان من الحديد ، وتختصر المسافات وتطوى الزمن ، فى عصر كانت السيادة فيه للبغال والخيول ، وأخذ السلطان هو وأمراء البيت العثمانى يتفقدون أجزاء القاطرة ، ويسألون عن كل صغيرة وكبيرة ويستمعون إلى شرح مفصل من مهندس القاطرة وسائقها عن كيفية حركتها .. وايقافها . ثم يستمعون فى شغف إلى صفارتها الحادة التى تنطلق لتنبه الناس إلى حركتها فيفسحون لها الطريق .

فلما جاء موعد تحرك القطار استقل السلطان صالونه الخاص ، بينما جلس الخديو فى مقعد مجاور ليكون تحت إذنه فى أية لحظة ، وركب باقى الأمراء العثمانيين والمصريين فى عربات القطار الذى أخذ يقطع سهول الدلتا الممتدة عبر الأفق وأخذ السلطان يرسل الطرف بعيدا بعيدا إلى الحقول الخضراء تتخللها القنوات والترع .. والفلاحون المصريون أنصاف عرايا، وقد انحنت اصلابهم على الطين . انهم نفس الفلاحين الذين اجتاحتهم جيوش الاسكندر وقمبيز وقيصر ولويس التاسع وسليم الأول .. فما نالت من صلابتهم ووداعتهم وارتباطهم الوثيق بالأرض التى خرجوا منها .. لقد اندثر الطغاة ،

والمتجبرون أو ذابوا فى طين مصر بمن فيهم الأتراك . ويبقى المصريون يفلحون الأرض ويستخرجون السنابل وينشرون الأمن والسلام على العالم .

فلما بلغ القطار كوبرى كفر الزيات أبدى السلطان عبد العزيز هو وحاشيته إعجابهم ببنائه ، وأخذوا يعظمون من شأنه ، ويبالغون فى تقدير نفقاته ، ولكن إسماعيل قال للسلطان إن تكاليف بنائه لم تتجاوز سبعة ملايين فرنك، وأخذ البرنس حليم، أصغر انجال محمد على ، يروى للضيوف قصة نجاته من الغرق قبل خمس سنوات ، حين سقطت به العربة من الكوبرى حتى غاصت فى النيل ، وكان يشاركه فيها الأمير أحمد رفعت ابن أخيه البطل الشهير إبراهيم باشا ، والوريث الشرعى للعرش بعد الوالى سعيد ، ولكن رفعت لم يتمكن من الأفلات من العربة بسبب بدانته المفرطة فمات غريقا . وبذلك انتقلت وراثة العرش تلقائيا إلى أكبر الأمراء سنا : إسماعيل .

ومن المؤكد أن إسماعيل لم يكن مبتهجا ، وهو يستمع إلى تفاصيل هذه المأساة التى كانت تثير الأقاويل حول دور إسماعيل فى تدبيرها كى ينفسح أمامه الطريق إلى العرش ، وقد اختلفت الروايات بشأن تفسير هذا الجدث ، فمن قائل أن الكوبرى ترك مفتوحا سهوا فلما بلغ القطار بداية الكوبرى لم

يتمكن السائق من إيقافه فانزلق بركابه حتى غاص فى قاع النيل ، ولكن إلياس الأيوبى المؤرخ المتخصص فى تاريخ عصر إسماعيل يرفض هذه القصة ، لأن كوبرى كفر الزيات لم يكن قد تم إنجازه نهائيا وقت وقوع الحادث . ويفضل الأخذ برواية بعض الكتاب الغربيين الذين أرخوا لهذا الحادث ومنهم «ماك كون» و «إدون دى ليون» وخلاصة القصة أن القطارات كانت فى ذلك الوقت تجتاز النيل عند كفر الزيات فوق معدية تنقل عرباتها ثلاثا ثلاثا .. وكانت مصلحة السكة الحديدية تترك للركاب حرية الأختيار بين النزول من العربات أثناء نقلها إتقاء للخطر ، أو العبور فيها ، ولكن الأميرين : حليم ورفعت ـ وكانا فى عربة واحدة ـ أبيا النزول من العربة وفضلا البقاء فيها أثناء العبور فوق المعدية ، وبالغ العمال الملكلفون بدفع العربة فى دفعها بقوة إظهارا لنشاطهم وشهامتهم وغيرتهم .. فتدحرجت العربة وانزلقت وغرقت بمن فيها . وكان الأمير رفعت بدينا فلم يستطع الوثوب من نافذة العربة إلى الماء فأخرج منها ميتا مخنوقا ، وأما حليم فكان خفيف الجسم فإنه وثب من النافذة إلى الماء واجتازه سباحة.

أما الشبهات التى تثور حول تآمر إسماعيل ، فمنشؤها أن إسماعيل كان من المفترض ان يشارك الأميرين مركب الموت

. فقد كان الأمراء الثلاثة يقضون الليلة السابقة فى ضيافة الوالى سعيد باشا بالاسكندرية ، وكان برنامج الرحلة يقضى بأن يعودوا معا للقاهرة بالقطار ، ولكن إسماعيل تخلف فجأة عن مصاحبتهما وأعرب عن رغبته فى البقاء بالاسكندرية لبضعة أيام .. وكان تخلفه هذا مثيرا للشكوك والظنون . ولم يستطع إسماعيل أن يمحو هذه التهمة التى علقت به وكانت سببا فى حدوث القطيعة بينه وبين عمه حليم ، الذى خسر المعركة وأفلح إسماعيل فى نفيه من مصر ، ولا شك أن هذه الشكوك شجعت إسماعيل على تغيير نظام وراثة العرش ، فاستغل وجود السلطان فى ضيافته ، وقدم اليه الرشاوى والهدايا الفاخرة حتى انتزع منه فرمانا يجعل ولاية العهد فى أكبر أنجال الخديو .. فكان أغباهم وأضعفهم وأتعسهم : محمد توفيق .

مصر الجديدة

كانت ضاحية مصر الجديدة ، أول امتداد صحى مدروس للتوسع العمرانى الذى شهدته مدينة القاهرة ، فى مطلع القرن العشرين . فجاء تأسيسها على نمط الضواحى التى أقيمت حول العواصم الأوربية ، لامتصاص الزيادة الطبيعية فى عدد سكانها ، وتلافى حدوث انفجارات داخلية فى بنية المدن القديمة .. ويقوم مفهوم الضاحية فى عرف علماء العمران على أساس أن تكفل الضاحية لسكانها المسكن الصحى النظيف، وتوفر لهم كل احتياجات المعيشة الطبيعية من علاج وتعليم وترفيه ، بحيث لا يهبطون قلب المدينة إلا مرة واحدة فى اليوم ، عن طريق ترام سريع (مترو) ، يحمل سكان الضاحية فى الصباح إلى أعمالهم ويعود بهم بعد انتهاء العمل .. ومعنى ذلك أن التفكير فى إنشاء ضاحية مصر الجديدة جاء مصاحبا لظهور الترام فى شوارع القاهرة عام

١٨٩٦ ، وما أثاره هذا الترام من طفرة اجتماعية وعمرانية هائلة .

وفى عام ١٩٠٥ ، أسست شركة بلجيكية لإنشاء حى جديد فى المنطقة الصحراوية التى تقع شمالى القاهرة .. والأمر الجدير بالتسجيل والتقدير أن هذه الشركة الأجنبية ـ ومعها الحكومة المصرية ـ اتجهت إلى تعمير الصحراء ، ولم يخطر ببالها أن تعتدى على المناطق الزراعية المتاخمة للقاهرة ، والتى كانت مصدر الغذاء الرئيسى لسكانها .. والمؤسف أن ما حرصت عليه الشركة الأجنبية هى والحكومة الوطنية ـ كان مجال تفريط من جانب الحكومات المصرية بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ حيث تركت الحبل على الغارب لظهور الأورام السرطانية فوق الأرض الزراعية فى مدينة الأوقاف والهرم وعلى امتداد النيل من بنها إلى حلوان.

واختارت الشركة البلجيكية منطقة صحراوية ، كان لها وجود تاريخى فى العصر البطلمى ، وهى منطقة (هليوبوليس) التى قامت على أرضها جامعة فلسفية تخرج فيها أساطين الفكر اليونانى : أبقراط وأفلاطون وأرسطو وجالينوس ، فضلاً عن نوابغ العلماء فى الطب والسياسة والبلاغة والحكمة .. وكان إطلاق اسم هليوبوليس (أى مدينة الشمس) على الضاحية الجديدة بهدف إضفاء الصبغة

التاريخية عليها .. ولكن الأهالى استثقلوا الاسم فأطلقوا عليها من تلقاء أنفسهم اسم : مصر الجديدة .

وبدأت الشركة مشروعها العمرانى على مساحة ٢٥ كيلو متر مربعا ، أى ما يوازى حوالى ٦٠٠٠فدان ، اشترتها من الحكومة المصرية بسعر جنيه واحد للفدان ثم قامت بتقسيمها وطرحها للبيع لمن يريد بسعر أربعين قرشا للمتر الواحد، على أن تتكفل الشركة بأعمال بناء العمارات والفيلات ، ويسدد الملاك الجدد ثمن الأرض والبناء على أقساط متهاودة بفائدة ٣٪ للأرض و ٥٪ للبناء .. ولقيت الشركة إقبالا منقطع النظير ، لدرجة أنها حين طرحت أسهمها للاكتتاب العام تهافت المصريون والأجانب على شرائها ، حتى تمت تغطية ثمن الأسهم ٨٣ مرة ، منها ٤٥ مرة فى الإسكندرية ، وأربع مرات فى إنجلترا وبلجيكا ، والباقيات فى القاهرة، وبلغت قيمة الأموال التى جمعتها الشركة أكثر من مليونين ونصف مليون جنيه، وشرعت الشركة فى تشييد المساكن وتأجيرها ، وإغراء أهالى القاهرة على سكن الضاحية الجديدة عن طريق الإعلانات فى الصحف . وهذه صيغة إعلان نشرته الصحف فى شهر سبتمبر ١٩٠٩ :

«واحة عين شمس ـ هليوبوليس» للإيجار بجانب الجامع الجديد ، والترامواى الذى سينشأ قريبًا ، بيوت على الطراز

التركى ، مؤلفة من ثلاث غرف ، أو أربع وفسحة وفرن ، الأجرة من ٦٠ إلى ١٤٠ قرشا .

ويبرز لنا الباحث المعروف ، محمد سيد كيلانى ، فى كتابه (ترام القاهرة) مراحل نشوء هذه الضاحية الجميلة .. فقد بدأ تسيير الترام السريع (المترو) سنة ١٩١٠ ليربطها بقلب العاصمة ، بالإضافة إلى خط الترام (الأبيض) الذى كان ينتهى عن العابسية ، وخط آخر إلى الزيتون .. وكان ثمن التذكرة في المترو من ميدان الخازندار إلى مصر الجديدة سبعة مليمات للدرجة الثانية ، وعشرة مليمات للدرجة الأولى، ثم زاد بعد الحرب العالمية الأولى إلى عشرة مليمات للدرجة الثانية و ١٥ مليما للأولى .. ثم يقدم لنا وقائع الاحتفال الذى أقامته الشركة بمناسبة افتتاح مسجد مصر الجديدة برئاسة الأمير حسين كامل نائبا عن الخديو عباس الثاني وبحضور جمهور من كبار العلماء والموظفين والأعيان الوطنيين والأجانب وبعض السياح والسائحات .. وبعد تلاوة القرآن الكريم ، وقف بوغوص باشا نوبار ، نائبًا عن رئيس مجلس إدارة الشركة البارون أو مبان ، وألقى خطبة شرح فيها الغرض من إنشاء مدينة صحية فى ضواحى القاهرة وسط الصحراء ، تتمتع بجفاف الهواء وتتوفر لها كل أسباب المعيشة والرفاهية والاحتياطات الصحية ، وتتصل بالقاهرة بقطارات سريعة

تمكن سكانها من الوصول إلى مقار أعمالهم فى بضع دقائق .. (!!) .

وقال بوغوص باشا نوبار : «مع أن العمل فى هذه الضاحية لم يبدأ إلا من نحو أربع سنوات ، فإنه قد ظهرت فى عالم الحقائق مدينة عصرية تسطع فى أرجائها شموس الكهرباء ، ورفعت فيها القصور السامقة وتوفرت فيها أنواع الرياضات ، واجتمع لهذه المدينة الحافلة بالسكان ما يربو عدده على ثلاثة آلاف (!!) وهذا العدد يزداد كل يوم زيادة مطردة ، ونظراً إلى أن أغلب سكان مصر الجديدة هم من المسلمين الذين أحلهم فى هذا ما وجدوه فيه من أسباب الراحة. رأينا أن نقدم لهم شيئا أجل من هذا كله ، فأقمنا لهم مسجدا يؤدون فيه فرائض دينهم وهو المسجد الذى نفتتحه اليوم ، وتجاوزنا عن إدارته إلى ديوان الأوقاف» .

ولم تغفل الشركة عناصر الترفيه والترويح عن سكانها ، فأقامت لهم مدينة للملاهى أطلقت عليها اسم «لونابارك» ، وجمعت فيها كل ماهو عجيب ومثير حتى تقاطر عليها أهل القاهرة ، فكانت وسيلة ذكية لجذبهم وإطلاعهم على معالم المدينة الجديدة وإقناعهم بسكانها بدلا من التكدس فى الأحياء القديمة .. وينقل محمد سيد كيلانى وصف صحيفة «المقطم» للدهشة التى علت وجوه المصريين وهم يتنقلون من فرجة إلى

فرجة ومن لعبة إلى لعبة .. فكان قوم يمشون في كهوف وهم يهتزون اهتزازا شديداً ، بقوة خفية ، قيل إنها الكهربائية ، فيضحكون من رؤية بعضهم البعض ، ويضحكون سائر الناظرين إليهم ، وقوم يمشون على شبه نول الحائك ، فيتحرك بهم إلى الأمام ، وطوراً إلى الوراء ، كأنهم يرقصون وماهم براقصين ، وقوم يمشون أمام مرايا مستوية ومقعرة ومحدبة ، فتريهم صورهم مشوهة تشويها مضحكا ، فتارة يكونون صغارا كالقزم ، وتارة طوالا كالجبابرة .. وكلما مروا أمام مرآة ضحكوا وقهقهوا .. وأضحكوا الذين حولهم أيضا ..»

ولما كانت الأجواء المصرية المشمسة قد شجعت عالم الطيران الفرنسى لويس بيير موليا على أبحاثه ، فقد حرصت شركة مصر الجديدة على تخليد ذكراه في نصب تذكارى ، ولم تغفل أن تخلد معه ذكرى رائدى الطيران العربيين : الجوهرى وعباس ابن فرناس ، ونقشت على قاعدة النصب تلك الأبيات التى نظمها شاعر النيل حافظ إبراهيم :

إن يركب الغرب متن الريح مبتدعا
ما قصرت عن مداه حيلة الناس

فإن للشرق فضل السبق نعرفه
للجوهرى وعباس بن فرناس

قد مهدا سبيلا للناس تسلكها
إلى السماء بفضل العلم والباس

دنشـواى الصغـيرة

ينفرد حادث دنشواى (١٣ يونيه ١٩٠٦) بمكانة خاصة في تاريخ الكفاح المصرى، بسبب الفظائع التى ارتبطت به، والبشاعة التى تم بها تنفيذ أحكام الجلد والشنق فى الفلاحين المصريين، على مشهد من أهليهم فى أحد أجران القرية البائسة.. فظل دوى الحادث يتردد فى أنحاء مصر والعالم حتى آفاق المجتمع الدولى على وحشية الاحتلال البريطانى.. واستخدامه أحط وسائل القمع والتنكيل بالفلاحين العزل.. وكان حادث دنشواى من الأسباب الرئيسية التى عجلت برحيل جبار الاحتلال إيفلين بيرنج ـ الشهير باسم لورد كرومر ـ عن مصر فى العام التالى مباشرة. وصدق فيه قول أمير الشعراء أحمد شوقى:

أيامكم أم عهد إسماعيلا؟	أم أنت فرعون يسوس النيلا؟
أم حاكم فى أرض مصر بأمره؟	لا سائلاً أبدا ولا مسئولا!

يا مــالكا رق العــبــاد ببــاســه هلا اتخـذت إلى القلوب سبيلا!
لما رحلت عن البـلاد تشـهـدت فكأنك الداء العــيــاء وبيــلا

ولكن تاريخ مصر الحديث، ينطوى على حادث شبيه بحادث دنشواى، دون أن يكون له حظ شهرته.. ربما لأن حادث دنشواى الصغيرة وقع بعد خمس سنوات فقط من كارثة الاحتلال، وهى الفترة التى بلغ فيها الاحتلال ذروة عنفوانه، وخمد بالتالى صوت المقاومة الوطنية.. وربما لأن الأحكام التى صدرت عقب حادث دنشواى الصغيرة، خلت من أحكام الإعدام، وهو الفارق الرئيس بين الحادثتين وباستثناء هذا الفارق، فقد تطابقت وقائعهما جملة وتفصيلا.

وقد بدأت أحداث دنشواى الصغيرة، فى أصيل يوم ٢٧ مارس ١٨٨٧ ، عندما توجه ضابطان من جيش الاحتلال من «لواء ويلز» لصيد السمان فى الحقول المتاخمة لأهرامات الجيزة.. وأثناء الصيد أصاب الرش بعض الأهالى الذين صادف مرورهم على ظهور الجمال.. فتوجهوا نحو الضابط المعتدى، فحاول منحهم بعض البقشيش، ولكنهم رفضوا محاولة الاسترضاء، ودارت بين الطرفين مشادة حامية هجم أثناءها الفلاحون على الضابط لانتزاع البندقية من يده، ولكن دفعة من الرش انطلقت واستقرت فى رأس أحد الفلاحين

فأردته قتيلا.. وسرعان ما طار الخبر إلى أهالى قرية «الكنيسة»، فهرع أهل القرية إلى موقع الحادث، وانقض أهل القتيل على الضابطين، فأطلق أحدهما بندقيته فأصابت أشخاصا آخرين، ولكن الأهالى تغلبوا عليهما واقتادوهما إلى القرية، حيث انهالوا عليهما ضربا.. ثم تدخل الخفراء لحماية الضابطين، حتى وصول رجال البوليس، وأطلقوا سراحهما.

بمجرد وصول أنباء الحادث إلى علم السلطات البريطانية، توجه كولز باشا نائب مفتش عام البوليس، على رأس مفرزة من رجال البوليس العلنى والسرى وقاموا باعتقال ٤٥ شخصا من مشايخ وأهالى القرية، اشتبه فى اشتراكهم فى الحادث.. وعقد نوبار باشا رئيس الوزراء ووزير الداخلية اجتماعا طارئا، حضره وزير الخارجية، ومدير الجيزة، وشفيق بك منصور نائب المدعى العام لدى المحاكم الأهلية، للتشاور فيما ينبغى عمله لاسترضاء سلطات الاحتلال.. واستقر الرأى على أن يعهد بالقضية إلى محكمة مخصوصة، تشكل من مدير الجيزة، ونائب المدعى العام، وضابط إنجليزى كان يشغل منصب الملحق العسكرى.

ويعلل الدكتور محمد جمال الدين المسدى فى كتابه عن (دنشواى) إحالة القضية إلى محكمة مخصوصة بعدة أسباب:

منها عدم الثقة فى إمكان خضوع المحاكم الأهلية للضغط، وإصدار أحكام فيها ترضية كافية لسلطات الاحتلال.. كما كان يفترض أن تتعرض تلك المحاكم لمسئولية الضابطين عن الحادث، مما يجعل المحاكمة عامل إثارة ضد الاحتلال البريطانى فى مصر.. يضاف إلى ذلك أن سلطات جيش الاحتلال،كانت تصر على أن تلقى الخناقات بين المصريين وأفراد جيش الاحتلال معاملة خاصة، تكفل السرعة والشدة فى توقيع العقاب.

ورغم أن تقرير الطبيب الشرعى عن تشريح جثة الفلاح القتيل، قد أسفر عن وجود سبع عشرة (رشة) فى رأسه، مما يدل على أنه أصيب من مسافة قريبة جدا.. إلا أن السلطات لم تبحث فى مسئولية الضابطين القاتلين، ولم توقع عليهما أى عقاب.. وانتهت المحاكمة بإدانة ستة من الأهالى وثلاثة من مشايخ القرى؛ فحكم على المشايخ بالسجن والغرامة، وعلى الأهالى بالسجن والجلد عددا يتراوح بين ٢٥ و٥٠ جلدة بواسطة (القطة الإنجليزية)، وهى تختلف عن الكرباج المصرى المصنوع من الجلد المزدوج، ويضرب به على الرجلين والإليتين.. أما القطة فلها تسعة أفرع فى كل منها عقدة والضرب بها على الظهر.. وقد وصف مراسل جريدة (ستاندرد) البريطانية وقائع تنفيذ الأحكام على النحو التالى:

«فى الساعة الثالثة من بعد ظهر الخميس، اتجهت فصيلتان من لواء ويلز الذى ينتمى إليه الضابطان اللذان وقع عليهما الاعتداء، إلى القرى التى ينتمى إليها المحكوم عليهم، واصطفوا لمشاهدة تنفيذ الأحكام.. كان هناك أيضا بليغ بك على رأس البوليس السوارى المصرى، والنقيب فريمان على رأس بعض رجال البوليس الحربى البريطانى، وهم مجموعة من الرجال فارعى الطول، تم اختيارهم من بين فرق الفرسان المختلفة.. وقد قيد المحكوم عليهم إلى العروسة المعروفة، ونفذ فيهم أحكام الجلد سجانون إنجليز أشداء من سجن الجيزة.. وكان التنفيذ علنا على مشهد من الفلاحين بالقطة الإنجليزية.. وبعد أن تم جلد بعض المحكوم عليهم عند إحدى القرى، تحرك الجميع إلى قرية أخرى، وجلد عدد آخر من المحكوم عليهم أمام أهالى القرية.. وبعد أن تم تنفيذ أحكام الجلد، ألقى قائد لواء ويلز كلمة قصيرة قال فيها: إن الإنجليز حضروا إلى مصر لحماية الأوروبيين بالإضافة إلى حماية الوطنيين، وإنهم بذلوا دماءهم فى سبيل هذا البلد وتملؤهم الرغبة فى حفظ النظام فيها.. لذلك فلو وقعت اضطرابات أخرى، فإن المتسببين فيها سيلقون عقابا أشد مما لقيه المحكوم عليهم».

وعقب مراسل الصحيفة الإنجليزية على الحادث بقوله: إنه بمجرد بدء موسم الصيد، يهرع الأوروبيون من مختلف

الجنسيات إلى الحقول، ويتلفون مزروعات الفلاحين.. وقد تكررت شكوى الفلاحين من ذلك دون جدوى، لأن الامتيازات الأجنبية تحول دون عمل شئ.. وهذا ظلم صارخ.. ثم أضاف: «وقد سمعت اليوم أن بعض مشايخ القرى قالوا إنهم سيشنقون بدون رحمة أول أوربى يسىء التصرف، وهو يصطاد، وذلك، انتقاما لما حدث للأهالى..»

ويبدو أن تقسيم الحظوظ، ينطبق على حوادث التاريخ، كما يجرى على البشر فقد اندثر حادث دنشواى الصغيرة من ذاكرة التاريخ، ولم يحفل به أحد من الباحثين باستثناء الدكتور المسدى، وبقى حادث دنشواى الكبيرة ماثلا فى الأذهان محفورا فى وجدان المصريين، يذكرهم دائما بالتضحيات الجسيمة، التى بذلوها دفاعا عن أموالهم وكرامتهم وأعراضهم.

أدب البصـــل

تفتحت عيناى على صورة شيخ وقور تزين جدران بيتنا. كان الرجل بهى الطلعة.. وسيم الملامح.. مفتول الشارب.. توحى نظراته بالارتياح والثقة فكأنك أمام عم أو خال أو جد.. ولقد ظننت في البداية أنه أحد الأقرباء.. فلما بلغت مرحلة الصبا، عرفت أنه لا يمت إلينا بصلة الدم.. ولكن بصلة العقل والروح.. فقد كان أبى من عشاق المنفلوطى.. فلما دخلت المدرسة الايتدائية واجهت الصورة نفسها فى كتاب المطالعة، وتحتها عبارات تذوب رقة وعذوبة، عن الرحمة والتراحم والبؤس والبؤساء.. وكان على أن أحفظها حتى أستخدمها فى صياغة دروس الإنشاء، فقد كانت الوصية الأولى عند أساتذة اللغة العربية في كل أنحاء مصر: أقرأ المنفلوطى، ثم أكتب على منواله.. وكلما تقدمت فى مراحل التعليم، ازددت قربا من المنفلوطى.. فقرأت «النظرات»، ثم «العبرات»، ثم بقية

السلسلة الراقية التى صاغها السيد مصطفى لطفى المنفلوطى: الفضيلة وماجدولين، وفى سبيل التاج.. حتى بات المنفلوطى جزءا لا يتجزأ من كيانى الثقافى.

وإذا سألتنى عن سر عظمة المنفلوطى، قلت لك: إنها تتمثل فى قدرته على بث القيم الخلقية الرفيعة، والآداب السامية، والمثل العليا، فى أسلوب محبب إلى النفس - وتلك وظيفة الأدب كما كنا نتعلمها - فأنت أمامه لا تشعر بأنك بإزاء واعظ أو استاذ، ولكنك بجوار صديق عزيز يمس أوتار قلبك بأصابع حانية.. فلا تلبث ينابيع الخير أن تتفتح فى نفسك لتستقبل إشعاعات الحق والفضيلة والجمال.. مثلما تتفتح الزهرة لتحتضن أشعة الشمس.

وأنت حين تقرأ المنفلوطى، فإنك فى الواقع لا تقرأ كلاما مرضوصا أو عبارات جامدة.. وإنما تسمع ألحانا شجية تنبعث من قيثارة مستكنة فى أعماقك.. فتحرك فى نفسك إحساسا بالسمو والارتقاء.. فإذا بك قد استحلت كائنا نورانيا يشع بالجمال والطهر والعفاف.

وظلت رفقتى للمنفلوطى، حتى بعد أن تخرجت فى الجامعة.. وتعرفت إلى أدباء من الشرق ومن الغرب.. لكل منهم طعمه ومذاقه.. وأسلوبه ومنهاجه.. ومع ذلك بقى

المنفلوطى مستقرا فى أعماقى.. ألوذ به كلما أجهدنى المسير.. ولسعتنى شدة الحياة.. فأرتشف من نبعه الصافى بضع قطرات تملأ النفس بشرا وأنسا.

وكان أشد ما يؤلمنى، تحامل النقاد على الأدب المنفلوطى.. وإتهامه بإشاعة روح الضعف والتخاذل والخور فى نفوس الشباب.. وكان على رأس هؤلاء الناقدين الأستاذ العقاد.. فقد كان من المؤمنين بفلسفة القوة.. والمبشرين بفكرة البطولة وقد أزعجه أن رأى كراريس الإنشاء عند تلاميذه ـ وقت أن كان مدرسا ـ لا تخلو إحداها من «ميزاب دمع أو مأتم شجو وأنين» تأثرا بأدب المنفلوطى.. وقد بلغت السخرية عند العقاد أن طلب من طباخ المدرسة أن يجمع مخزون البصل عنده، ثم يقدمه إلى التلاميذ أثناء حصة الإنشاء ليستخدموه فى استدرار الدموع بدلا من أدب المنفلوطى..» فالبصل أولى بمهمة تصريف الدمع من كراسة الإنشاء» على حد تعبير العقاد.

ولم يكن العقاد فريد عصره فى التحامل على المنفلوطى، واتهامه بالإفراط فى البكاء وإشاعة الأحزان فى نفوس قرائه.. فقد شارك فى الحملة كثيرون، ساءهم أن يكون للمنفلوطى هذا

التأثير الكبير عند الشباب، وأن يكون أدب المنفلوطي حجر الأساس في تذوق الأدب.

وكان المنفلوطي يتقبل هذه الحملات الظالمة - كعهده - صابرا راضيا.. ولا يملك حيالها دفعا.. حتى إذا مات لم يجد أحدا يشيع جثمانه.. فقد شاء القدر أن يلقى وجه ربه في يوم عصيب.. وهو يوم الاعتداء على حياة زعيم الأمة سعد زغلول في ١٢ يوليو ١٩٢٤.. فقد اتجهت جموع الشعب نحو محطة القاهرة لتطمئن على حياة زعيمها، ونسيت أديبها الكبير.. وقد لفتت هذه المفارقة نظر أمير الشعراء أحمد شوقي، فأنشد مخاطبا المنفلوطي:

أخْترتَ يومَ الهولِ يومَ وداع
ونعاك في عصفِ الرياح الناعي
هتف النعاةُ ضحيً فأوصدَ دونهم
جرح (الرئيس) منافذ الأسماع
من مات في فزع القيامة لم يجد
قدما تشيِّع أو حفاوةَ ساع

قصيدة الاستقبال

عاد الخديو عباس حلمي الثاني، من رحلة الحج عام ١٩٠٢ ، فوجد في استقباله قصيدة مجهولة المؤلف من أعنف شعر الهجاء، وأقوى ما قيل في التهجم على الأسرة العلوية التي اعتبرها كاتب القصيدة نكبة على مصر والمصريين، وأخذ يعيرها بأصلها الوضيع في (قولة) المقدونية، وينهال على عباس تهكما إذ طمح في أن يكون خليفة للمسلمين! وذاعت القصيدة على ألسنة الناس، وباتت حديث المقاهي والمنتديات بعد أن قرءوها على صفحات مجلة (الصاعقة) التي كان يصدرها الصحفي أحمد فؤاد، المشهور بالصاعقة، نسبة إلى صحيفته التي تخصصت في أقذع ألوان الهجاء والاسفاف.

يقول كاتب القصيدة التي دخلت تاريخ الأدب الحديث باسم قصيدة «الاستقبال»، مخاطبا الخديو بعد قدومه من الأقطار الحجازية:

قدومٌ، ولكنْ لا أقولُ سعيدُ — ومُلْكٌ وإنْ طالَ المدى سيبيدُ
يذكرنا مرآك أيامَ أُنزلتْ — علينا خطوبٌ من جدودك سود
رمتنا بكمْ «مقدونيا» فأصابنا — سهامُ بلاءٍ وقعهنَّ شديد
فلما توليتمْ طغيتمْ، وهكذا — إذا أصبح «القوليُّ» وهو عميد
أعباسُ ترجو أن تكونَ خليفةً — كما ودَّ آباءٌ ورامَ جدود
فيا ليت دنيانا تزول وليتنا — نكونُ ببطنِ الأرضِ حيث تسود

وثارت ثائرة الخديو، وطلب من سلطات التحقيق أن تباشر مهامها، فألقت القبض على صاحب المجلة، فقال إنه لا يعرف اسم مؤلف القصيدة، وادعى أنه نقلها سمعا عن الأديب الكبير مصطفى لطفى المنفلوطى.. وبعد القبض على المنفلوطى نفى أنه ناظم القصيدة. ولكنه لم يكشف النقاب عن اسم صاحبها.. وإزاء هذه المعلومات المبتورة لم تجد النيابة بذا من تقديمهما إلى المحاكمة، فكان نصيب كل منهما السجن ستة شهور مع النفاذ.

ولم يقنع عباس الثانى بهذه النهاية، وانصرف همه إلى معرفة المؤلف المجهول.. وكان عباس كأى حاكم شرقى يعتمد على الجواسيس الذين ينقلون إليه همسات الناس فى مخادعهم.. كما كان بارعا فى تدبير الدسائس والمؤامرات، وهو الذى وصفه اللورد كرومر أنه كان أستاذا فى هذا الفن..

وأطلق عباس عيونه فى سوق الأدب، حتى عرف أن كاتب القصيدة، هو السيد توفيق البكرى، شيخ مشايخ الطرق الصوفية، ونقيب الأشراف، وزعيم بيت السادة البكرية، أحد بيوت العلية الذين يحظون بشرف الانتساب إلى الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه ويضعون أنفسهم فى منزلة البيت المالك نفسه، إن لم تعل عليه.

وكان توفيق البكرى أديبا وشاعرا وباحثا، يجمع بين الثقافة العربية الرصينة والثقافة الغربية الحديثة.. وقد تلقى تعليمه المبكر في المدارس الأجنبية، جنبا إلى جانب عباس حلمى، وغيره من أمراء البيت العلوى، وإن كانت هذه الزمالة القديمة لم تمنع سليل بيت الصديق من أن يطمح إلى ما هو أكبر من المناصب الدينية الرفيعة.. ويرنو إلى عرش مصر.. وكان قصره الفخيم بالخرنفش مثابة يؤمها علية القوم، وسفراء الدول الأجنبية، وعلى رأسهم المعتمد البريطانى.. يحرصون على غشيانه، فى المناسبات والأعياد الدينية، حرصهم على الذهاب إلى قصر عابدين... ولقد أدت كل هذه الملابسات بنقيب الأشراف إلى أن يعامل صاحب العرش معاملة الند للند، وليس معاملة التابع لسيده.. وكان عباس يرقب بحذر مطامح النقيب وما يمثله من خطر على عرش تنوشه سهام الاحتلال

من جانب ودسائس الخلافة من جانب آخر.. ولكن ماذا عساه أن يفعل مع رجل هذه مكانته؟!

* * *

لقد كان من العسير على الخديو عباس، أن يعامل عميد البيت البكرى معاملة السوقة حين يتطاولون على الذات العلية.. فهؤلاء ينتظرهم سيف القانون..

أما هذا السيد السند، فلا مناص من أن يكون جزاؤه متكافئا مع منزلته السامية.. وكانت جعبة عباس عامرة بشتى ألوان الدسائس التى تناسب كل المستويات.. فكان حظ النقيب دسيسة مفادها الحط من كرامته، وتلويث سمعته الخلقية عند أتباعه، وإسقاط هيبته الدينية عند من يراهنون به فى مجال السيادة والشرف، سواء فى عاصمة السلطة الشرعية (إستانبول) أو عاصمة السلطة الفعلية (لندن).. وجادت قريحة الخديو بفكرة خبيثة، فأوعز إلى أحد أدباء القصر أن يستدرج البكرى إلى كتابة قصيدة فى أحد موضوعات الغزل الفاحش.. وإليكم تفاصيل المؤامرة، كما يرويها شيخنا عباس محمود العقاد:

كان حفنى ناصف، أقرب الأدباء صلة بالسيد البكرى، ينشده ويستمع إليه.. فلما ذهب يزور السيد، وأقبل هذا ينشده

من جديد نظمه، تعمد حفنى أن يستثيره وقال له: أيها السيد! إنك ممن لا ينبغى لهم الشعر، فدعه لنا، وحسبك فخار الشرف والجاه! وحمى غضب السيد، فتحداه أن يجاريه فى نظمه إن استطاع.. وقبل حفنى التحدى على شريطة أن يكون موضوع القصيدة شخصيا لا يستعار من ناظم آخر، فى باب من الغزل المحظور.. فكتب البكرى أبياتا فى المعنى المقترح بخطه، وكتب حفنى أبياتا فى معناها.. ثم أخذ أبيات البكرى فأظهر الاعتراف برجحانه عليه فى فن الشعر، فوق رجحانه عليه فى الحسب والنسب! وذهب إلى النافذة يوهم السيد أنه يمزق الورقتين ويلقيهما حيث تلقى المهملات.. ولكنه مزق ورقته، وأبقى الورقة الأخرى فى جيبه.. ثم أسرع بها إلى القصر ليسلمها إلى الخديو، فأسلمها الخديو إلى لورد كرومر فى أول لقاء بينهما.. فكانت آخر العهد بدعوة السيد البكرى إلى حفلات الوكالة البريطانية.. وآخر عهد بزيادة العلية من رجال الدولة لقصر الخرنفش.

أولاد تيمور

عجيب أمر العائلة التيمورية..! لم يكن يجرى فى عروق ابنائها قطرة دماء مصرية، ومع ذلك أحبوا مصر حبا صادقا، وارتبطوا بشعبها ارتباطا وثيقا، خالطوا أولاد الحوارى فى حى الأزهر، وعايشوا الفلاحين فى عين شمس، وتشربوا الروح المصرية الخالصة ثم عبروا عنها بأرقى وسائل التعبير: الفن والأدب، ولا عجب أن تصدر أول صيحة لإبداع أدب مصرى صميم فى مطلع القرن من الأخوين: محمد ومحمود تيمور.

بم نفسر هذه الظاهرة: توهج العاطفة الوطنية عند بعض الأتراك المتمصرين، شريف باشا والبارودى وشوقى وقاسم أمين وأولاد تيمور؟ أديبنا الكبير يحى حقى يفسرها بأن العرق الحديث أشد العروق اهتزازا بحب الوطن الجديد وانتباها لفضله وجماله.. فليست العبرة فى أن يولد الكاتب فى أحضان

الطبقات الشعبية، بل فى قدرته على الأحساس بها وفهمها بفضل حب وتجاوب روحى.

وهذا على أى حال تفسير مقبول، وتشهد على صحته حوادث التاريخ، وينطبق على الأستاذ يحيى حقى نفسه صاحب قنديل أم هاشم، والبوسطجى وخليها على الله، وغيرها من الأعمال الأدبية ذات النكهة الشعبية.

أما رأس الأسرة التيمورية - محمد تيمور كاشف - فقد هبط مصر ضمن الحملة العثمانية التى جاءت لتهدئة الأحوال بعد خروج الحملة الفرنسية، وكان بين أفرادها محمد على، وكان تيمور أحد الأعمدة التى ساندت محمد على فى تأسيس ملكه وتولى بعض الوظائف الإدارية الكبرى وبنى لنفسه قصرا منيفا فى درب سعادة، وأنجب ولدا وحيدا أسمه اسماعيل لم يسلك نهج أبيه فى حقل الإدارة العليا، فقد شغله العلم عن وهج السلطة، وجعل من قصره مجمعا للعلماء والأدباء والفقهاء، وفى هذا المناخ الأدبى تفتحت مدارك ابنته عائشة فأصبحت شاعرة مرموقة، وأبنه أحمد باشا تيمورالذى لم يعرف تاريخ مصر الحديث نظيرا له فى حب العلم وعشق البحث واقتناء المخطوطات النادرة وتحقيقها حتى بلغ مجموع نفائسه ٧١٣٤

مجلدا بين مطبوع ومخطوط أهداها كلها إلى دار الكتب، كما خلف للأدب والفن ولديه الأديبين الكبيرين محمد ومحمود.

في هذا القصر الذى يشبه دار الحكمة فى عصر المأمون، تنفس الصبيان عبيرا ثقافيا معتقا.. وجالسا زمرة عجيبة من البشر الذين لا يمتون بصلة إلى الطبقة الارسقراطية التى ينتمى إليها صاحب البيت. وإنما هم خليط من رجال العلم والفقه والأدب، ومعظمهم من الفقراء وكلهم من طبقة الشعب، فلم تكن مجالس أحمد تيمور باشا - فيما يسجل الناقد الكبير عباس خضر - تضم ابناء الذوات، بل كان روادها ممن تجمعهم بصاحب البيت الصلات الفكرية المشتركة، ومن هذا العالم السحرى الأصيل انطلق الصبى محمد تيمور لايلوى على شيء، ولا على أحد من طبقته الارستقراطية فينزل من قصره يبحث عن الأدباء والفنانين ويذهب محمد تيمور إلى باريس لينهل من علمها وثقافتها كعادة ابناء الذوات فى ذلك العصر. ولكن مصر لا تفارق خياله، فلا يكف عن المقارنة بين حال مصر وحال باريس، ثم يعود من هناك وقد تشبعت نفسه بمشاعر التمرد على القديم والرغبة فى التجديد، ويقود نهضة أدبية قوامها إبراز الشخصية المصرية المستقلة عن الشرق والغرب.. وإيجاد فن شعبى صادق الاحساس وهو يعبر

عن أفكاره عن طريق المقالة الصحفية والمسرحية الاجتماعية بل يقف على خشبة الأوبرا يمثل فيراه السلطان حسين فيعجب بشجاعته وتمرده ويأمر بتعيينه أمينا فى القصر، وهى وظيفة يتمناها أبناء الذوات، ولكن فتانا يضيق بها ويراها قفصا من ذهب، فما إن يموت السلطان حتى يستقيل تيمور ويتحرر من رق الوظيفة ويعود إلى عمله الرحب المنطلق، ويتسلطن فؤاد وقد أتى به الانجليز من الكباريه إلى العرش فيستقبله تيمور وسيد درويش بمسرحية، العشرة الطيبة التى يسخر فيها تيمور. من فساد الحكم، ويوجه إلى السلطان رسالة على لسان الأغوات يقول فيها: عشان ما نعلى ونعلى ونعلى.. لازم نطاطى.. نطاطى.. نطاطى ويفهم فؤاد الإشارة فيوعز بوقف المسرحية.. ولا يمضى تيمور فى مشوار التمرد.. فقد أختطفه الموت وهو فى شرخ الشباب.. وودع الحياة قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره.

مسرحية متقَنة الصُنع

بعد هزيمة العرابيين فى التل الكبير (١٣ سبتمبر ١٨٨٢) أيقن أحمد عرابى أنه لا أمل فى الصمود، فهرع إلى القاهرة، وسلم نفسه إلى سلطات الاحتلال البريطانى التى أصبحت - منذ هذا اليوم المشئوم - صاحبة الكلمة الأولى فى إدارة شئون مصر، وأضحى الخديو توفيق مثل خيال المآتة.. لا تتعدى سلطاته حدود قصره، وبدأت إجراءات التحقيق مع عرابى وزملاءه الستة تمهيدا لمحاكمتهم، ورأى الإنجليز أن تقتصر قائمة الاتهام على تهمة واحدة فقط هى: عصيان الخديو وأن يصدر الحكم على عرابى وزملائه بالإعدام متضمنا التخفيف إلى النفى المؤبد خارج مصر.

وكان توفيق الخائن لا يرى بديلا عن إعدام عرابى، ولو كانت توجد عقوبة أشد فتكا وتنكيلا من الإعدام لما تورع عن استعمالها، ولو ترك توفيق وهواه.. لاستخدم مع عرابى أبشع

فنون التعذيب التى تعودها حكام الشرق وسودوا بها صحائف التاريخ، ولكن الانجليز .. وقد استقرت لهم الأمور.. وقفوا فى وجه توفيق.. وحالوا بينه وبين رقبة عرابى..

وبدا الأمر فى غاية الغرابة..!!

●● حاكم البلاد الشرعى يطالب برقبة الزعيم الوطنى الذى وقف فى وجه الغزو الإنجليزى، ثم انكسر بفعل الخيانة والعجز والتردد..

●● وسلطات الاحتلال ترى الإبقاء على حياته!!

●●●

وكان هذا الموقف المحير - ولا يزال - مثار دهشة الباحثين ونقاد التاريخ، وقد حاول المؤرخ عبد الرحمن الرافعى أن يلقى ظلالا من الشك حول قيام علاقة مشبوهة بين عرابى والإنجليز، مستعينا فى ذلك بمزاعم الساسة الفرنسيين، وقد بلغ بهم الشطط أن ادعوا وجود اتفاق مسبق بين عرابى والانجليز على احتلال مصر!!

ومع أن الرافعى وصف أقوال المسئولين بأنها (إسراف فى الاتهام) إلا أنه لم يكلف نفسه مسئولية مناقشة هذا الاتهام

الفظيع ودحضه، وكشف ما ينطوى عليه من تهافت وسطحية، وأى ناقد للتاريخ يعرف دوافع المزاعم الفرنسية، فقد خرجت فرنسا من سباق احتلال مصر خاسرة، واستطاعت إنجلترا أن تنفرد بمصر وتفترسها بعد أن خدعت الذئاب الأوروبية الأخرى وأبعدتها خارج الحلبة، فلم تجد هذه الذئاب من وسيلة للتعبير عن حنقها وخيبتها سوى التشنيع والتشكيك فى وطنية عرابى وإتهامه بالتواطؤ مع أعدائه. وظل هذا الاتهام معلقا برقبة العرابيين سنين طويلة، والمؤسف أن تأثرت به بعض العناصر الوطنية مثل مصطفى كامل والشاعر أحمد شوقى وبدا هذا التأثر واضحا فى كتابات الرافعى التى تزخر بالتحامل والتجنى على الحركة العرابية

ولكن السؤال الأهم الذى لا يزال قائما هو: لماذا أظهر الإنجليز هذا القدر الكبير من التسامح مع عرابى ـ ولماذا أصروا على الابقاء عليه حيا، وهم الذين جردوا الأساطيل للقضاء عليه؟

لقد ظهر عطف الإنجليز على عرابى منذ وقع فى أيديهم، وهددوا الخديو إذا أصابه مكروه، وأمروا بأن يعامل معاملة انسانية فى سجنه ولا يتعرض لأى تعذيب، بينما كان الخديو الخائن يبعث تابعه ابراهيم أغا فى منتصف الليل ليفتش

الزنزانة على البطل الأسير ويوقظه من نومه ثم يبصق فى وجهه وينهال عليه بأقذع الشتائم، وعين الإنجليز مندوبا خاصا (تشارلس ويلسون) لحضور مراحل التحقيق مع عرابى، وتدخلوا فى توجيه التحقيق بحيث يقتصر على تهمة العصيان وتبرئته من تهمة تدبير مذبحة الاسكندرية التى وقعت قبل شهر من ضرب الاسكندرية.

وفى نفس الوقت كانت هناك اتصالات تجرى وراء الكواليس عبر القاهرة ولندن هدفها انقاذ عرابى من حبل المشنقة، وكان محور هذه المساعى الكاتب الحر والسياسى الإنجليزى الشهير مستر (بلنت) صديق العرابيين الحميم وكاتم أسرارهم منذ فجر الحركة الوطنية. وقاد بلنت حملة إعلامية من أحرار الإنجليز لتحريك الرأى العام الإنجليزى ليرغم حكومته على إنقاذ البطل القومى المصرى الذى ثار على الظلم والطغيان والسخرة وحكم الفرد، وتطلع مع شعبه إلى حياة جديدة تناسب روح العصر ويتحقق فيها قدر معقول من العدل والمساواة والمشاركة فى ادارة البلاد.

وبينما كان عرابى عاجزا عن توكيل محام مصرى يتولى الدفاع عنه أمام المحكمة المصرية (!!) كان بلنت قد نجح فى

تكليف محامٍ انجليزى للدفاع عن عرابى وإخوانه.. وجاء الرجل إلى القاهرة وقام بمهمته الجليلة.. وتم الاتفاق مع سلطات الاحتلال على صيغة الاتهام ومنطوق الحكم.. حتى إذا وقف عرابى أمام قضاته كان كل شئ قد تم إعداده مسبقاً.. وبدت المحاكمة مثل مسرحية متقنة الصنع.

مذنب .. أم غير مذنب؟

لم تستغرق محاكمة زعيم الثورة العرابية أكثر من خمس دقائق، كانت كافية لأن يؤدى كل طرف من أطراف المسرحية دوره المرسوم بإتقان وشهدت قاعة مجلس النواب القديم (قاعة مجلس الشورى حاليا) ستار الختام وهو ينسدل على تلك الملحمة الأسطورية الباسلة التى خاضها الشعب المصرى ضد الاستبداد والظلم والتدخل الأجنبى.. ولكن.. هاهو ذا الحلم الذى راود قلوب المصريين فى الحرية والعدل.. يخبو ويذبل وهاهو ذا البطل القومى المهزوم يقف أسيراً بين براثن اعدائه ليؤدى الدور الذى كتبوه له.. ولم يكن مطلوبا منه أن يتكلم أو يدافع عن نفسه.. حتى اذا سألته المحكمة عما إذا كان مذنبا أم غير مذنب ـ أشار إلى محاميه الانجليزى، مستر برودلي، فوقف ليتلوا بالفرنسية اعترافا من زعيم الثورة بأنه مذنب، ثم قدم الى هيئة المحكمة نص الوثيقة التى وقعها

عرابى فى صبيحة ذلك اليوم ونصها «بمحض ارادتى الحرة وبناء على مشورة محاميّ، أقر بأننى مذنب فى التهمة التى تليت علىّ الآن».

والمقصود تهمة التمرد على الجناب الخديوى.

وتنفض المحكمة لمداولة صورية تستغرق ست ساعات، أغلب الظن أن أعضاء المحكمة التسعة قضوها فى تدخين الشيشة، فلم يكن هناك شيء يستحق المداولة، لأن رئيس المحكمة - الفريق رؤوف باشا - كان يحمل فى جيبه نص الحكم الذى كان محكوما عليه بأن ينطق به أمام جمهور معظمه من الصحفيين الأجانب الذين كانوا يعرفون التطور الدرامى للمحاكمة..!

■■■

هل كان عرابى مخطئا حين قبل الاشتراك فى هذه المسرحية التى انتهت بتخليص رقبته من حبل المشنقة ومعه رقاب ستة من اكبر اعوانه وإبعادهم جميعا خارج البلاد..؟؟

من السهل على قارئ التاريخ المعاصر أن يصدر حكما تعسفيا على هؤلاء الرجال، مدفوعا بعاطفة الحماسة، ولكن من الصعب على الباحث المنصف أن يصدر مثل هذا الحكم قبل

أن يلم إلماماً كافيا بالظروف والملابسات التى أحاطت بالحدث، وبشرط أن يتجرد من مشاعر الحب والبغض، وبذلك يكون حكمه أقرب الى الانصاف والعدل..

أما خصوم الثورة العرابية فيأخذون على زعيمها قبوله توكيل محام انجليزى للدفاع عنه أمام محكمة مصرية، ويتخذون من ذلك ذريعة لاتهام عرابى بالتواطؤ مع الانجليز..

والواقع أن عرابى لم يقصر فى توكيل محام مصرى عنه، ولكن الذى حدث أن هذا المحامى المصرى تنصل من القيام بواجبه خوفا من بطش الخديوى.. بينما كان مستر بلنت - صديق العرابيين - قد نجح مع اصدقائه الأحرار الانجليز، فى الاتفاق مع مستر برودلى وزميله نيبير للدفاع عن عرابى واخوانه، وعنما جاء المحاميان الانجليزيان الى مصر وجدا سلطات الاحتلال قد شددت قبضتها على شئون مصر، وآل إليها زمام الأمر كله، فكان لابد من «تسوية» ترضى جميع الأطراف.

■ ■ ■

كان لورد دوفرين، سفير انجلترا فى الاستانة واحد اساطين الاستعمار البريطانى - قد جاء الى القاهرة عقب

الاحتلال ليرسم مستقبل مصر في ظل الاحتلال، ويضع البرنامج الاستعماري طويل الأجل الذي سيقوم بتنفيذه تلميذه النجيب لورد كرومر وكان من رأى دوفرين الفراغ بسرعة من قضية العرابيين وإغلاق هذا الملف الثوري الى الأبد، حتى تتفرغ انجلترا لمهمتها الاستيطانية في مصر، ولذلك وضع دوفرين الخطوط الرئيسية لمسرحية محاكمة العرابيين، وأشرف بنفسه على اخراجها وتوزيع الأدوار على كل طرف من أطرافها، فلما كشف افنديتا توفيق الخائن عن نواياه الانتقامية من عرابي واخوانه، تصدى له دوفرين، وأظهر له يدا حديدية ملفوفة في قفاز من المخمل، فتراجع افنديتا ورضي بالأمر الواقع..

كان دوفرين يعارض إعدام عرابي، ليس لأنه لا يستحق الموت، ولكن لأن الرأى العام الانجليزي، ومن خلفه أحرار أوربا وأمريكا كانوا يعتبرون الثورة العرابية حركة شعبية وطنية. وأن عرابي وزمرته أبطال يستحقون التمجيد، ولم تكن حكومة جلادستون في لندن على استعداد لتجاهل هذا التيار المستنير المؤثر.

هذه واحدة.. أما الثانية فترجع الى نوايا الاحتلال في مصر وعزمه على البقاء فيها لأطول فترة ممكنة بدون

إزعاج، وبدون هبّات شعبية تهدد وجود الاحتلال، الأمر الذى يتطلب الابقاء على حياة عرابى حتى لا يصبح مصدر إلهام لثورات متجددة، وكان لابد من اغلاق ملف البطولات الشعبية حتى تموت بذور الثورة بموت ابطالها فى جزيرة نائية غارقة فى مياه المحيط الهندى.

واثمرت خطة الاستعمارى العريق دوفرين، وعاشت مصر أقسى فترات حياتها فسادا وانحلالا.. وغلب اليأس على النفوس حتى فقد الناس الأمل فى صبح جديد، ولكن مصر الولود المعطاء لم تلبث أن افاقت من غشيتها ونهضت تفك قيودها وتسترد روحها.. وظهر مصطفى كامل صوتا جهيرا عم صداه انحاء البلاد فأيقظ النيام بعد طول رقاد، وتفجرت ثورة ١٩١٩ لتمحو عار الهزيمة بعد ٣٧ سنة من وقوعها وتثبت أن فى السويداء رجالا يأبون الضيم والخنوع والاستعباد..

أمراء .. لكن شرفاء

فى تاريخ الثورة العرابية صفحة مجهولة تتعلق بموقف أمراء الأسرة العلوية من هذه الثورة، خاصة عندما تطورت الأحداث إلى ذروة الصدام المباشر بين عرابى باشا من جهة، وتوفيق خديو مصر وعميد الأسرة العلوية من جهة أخرى.. وكان على أفراد الأسرة أن يحددوا موقفهم من العسكريين.. وهو الاختيار الصعب.

ومن الحقائق المعروفة أن توفيق هذا.. لم يكن يتمتع باحترام أو تأييد أقاربه لأسباب كثيرة بعضها يرجع إلى تكوينه الخلقى الذى كان من أبرز مميزاته الجهل والغباء والتردد والغدر، وبعضها الآخر يتعلق بالصراعات داخل الأسرة نفسها، وهى صراعات كان يقودها أمراء أقوياء يرون أنفسهم أحق بالملك من توفيق، لولا اللعبة التى دبرها والده إسماعيل لتغيير نظام وراثة العرش، ونتيجتها أصبح الحكم من نصيب

أكبر أبناء الوالى بعد أن كان من حق أكبر أفراد الأسرة، وكانت تلك غلطة اسماعيل القاتلة، ولعله هو نفسه كان أول ضحاياها.. فلم يكن ابنه توفيق - وهو ولى للعهد - ببعيد عن مؤامرة عزل ابيه، وكان أقوى المناوئين الأمير عبدالحليم أصغر اولاد محمد على الذى نحاه اسماعيل ونفاه إلى الاستانة.. ومن هناك كان يحيك الدسائس لاستعادة عرشه السليب، وكان هناك أيضا الأمير مصطفى فاضل شقيق اسماعيل الذى أبعد عن العرش ليحل محله توفيق الغبى الجهول. أضف الى ذلك أن أم توفيق كانت محظية لا ترقى الى مستوى الاميرات.

ولكن هذه الصراعات العائلية تضاءلت أمام الحدث الأكبر حين تعرضت مصر للغزو الانجليزى، وانهالت قنابل الأسطول على الاسكندرية فى يوليو ١٨٨٢ وكشف توفيق عن وجهه القبيح بانحيازه العلنى إلى جيش الاحتلال. وبينما كان الجيش المصرى يصنع المستحيل لصد الهجوم، اجتمع قادة الأمة من كل الفئات والطبقات والأديان واصدروا قرارا تاريخيا بالوقوف خلف الجيش المصرى بقيادة عرابى وعدم الاعتراف بالأوامر التى يصدرها توفيق الخائن من مكمنه فى الاسكندرية، «حيث أن الخديو خرج على الشرع الحنيف والقانون المنيف» وكان فى طليعة الموقعين على هذه الوثيقة التاريخية ثلاثة من أمراء الأسرة العلوية.

وفى أثناء معركة كفر الدوار ظهرت حاجة الجيش المصرى إلى المال والعتاد والمؤن، بعد أن استولى السير «كالفن» المراقب المالى الانجليزى على أموال الخزانة المصرية وحملها فى الأسطول الانجليزى المرابط فى الاسكندرية. وهنا ظهرت معادن المصريين الأصيلة، فجادوا بما لديهم من نفس ومال وغلال وعتاد وخيول ودواب.. ولم تتخلف أميرات الأسرة العلوية عن المساهمة فى هذا الواجب المقدس، وفى طليعتهن الأميرة خوشيار أم الخديو اسماعيل التى تبرعت بجميع خيول عرباتها، واقتدى بها بقية أفراد العائلة، على النحو الذى يرويه عرابى فى مذكراته..

على أن الجانب المثير فى موقف أميرات الأسرة العلوية إنما يتجلى رائعاً بعد فشل الثورة وانفضاض الذباب من حولها . ففى هذا الوقت العصيب الذى تنكر فيه الانتهازيون للثورة وتبرأوا منها.. ظلت الأميرات على مبدأهن المؤيد للثورة وقائدها، ولم يمنعهن الخوف من بطش الخديو من الوقوف إلى جانب عرابى فى محنته، ويقين معه حتى اللحظة التى غادر فيها مصر إلى منفاه السحيق، وبينما كان عرابى يستقل القطار من قصر النيل إلى السويس انهالت عليه هداياهن الثمينة اعترافا بمجده وبطولته، فبعثت إليه واحدة

بمعطف ثمين ، وأرسلت أخرى مصحفا كبيرا وثالثة سجادة صلاة .. الخ.

ويكشف مستر برودلى - محامى عرابى الإنجليزى - عن هذه الصفحة المضيئة فيقول: أن عرابى وجد فى سيدات مصر اكبر عون فى ثورته فقد ساعدنه منذ اللحظات الأولى مساعدات لها قيمتها، وظللن يقدمن هذه المساعدة حتى بعد أن فقد آخر أمل فى النصر، بل إن أميرات الأسرة الخديوية - باستثناء أم الخديو توفيقِ وزوجته - كن يعطفن عطفا كبيرا على عرابى باشا، وألّفن عدة جمعيات مهمتها مساعدة ومواساة الجرحى فى موقعة كفر الدوار، والاستعداد لمواجهة مصاعب القتال القادمة إلى حد الاشتراك فى الصفوف ذاتها، وتلقى برودلى من أرملة الوالى سعيد باشا خطابا تشكره فيه على دفاعه عن عرابى.

ويعلق برودلى على ذلك بقوله: ولاشك أن هذا خير رد على اولئك الذين يزعمون أن حركة عرابى لم تكن إلا حركة فردية، فهى فى الحقيقة حركة شعبية أسهم فيها المصريون جميعا.

وكشف برودلى فى مذكراته التى ترجمها محمود كامل المحامى عن لقاء مثير تم بينه وبين إحدى الأميرات، لم

يفصح عن اسمها خوفا عليها من انتقام الخديو، قالت الأميرة: كانت كل واحدة منا - نحن الأميرات - تعطف على عرابى منذ البداية، لأننا نعرف أنه كان يرغب أصلا فى تحقيق أمانى المصريين جميعهم، وكنا جميعا ننظر إلى عرابى نظرة الرجل المدافع عن البلاد إزاء الانجليز الذين التجأ اليهم الخديو، فعقدت مجالس كثيرة من رجالات مصر فى القاهرة، اشترك فى بعضها الأمير إبراهيم والأمير كامل والأمير أحمد، وقررت هذه المجالس مساعدة عرابى حتى يسير بالحرب إلى النهاية، لقد رأينا فيه القائد. وكانت لدينا كل الثقة به، فكتبنا له الرسائل والبرقيات مشجعات مهنئات، بل إن إحدى الأميرات كتبت له خطابا غريبا تطلب منه الزواج بها لأنه منقذ مصر، فلما علمنا بهزيمته استولى الحزن علينا جميعا، وقد عوقبت الأميرة التى طلبت الزواج بعرابى شر عقاب بالرغم من أن والدتها اعترفت بأنها هى التى كتبت الخطاب ووقعته باسم ابنتها، ولكن الأميرة خوشيار عرفت كيف تؤدب الشخص الذى وشى بسر الخطاب إلى الخديو، فضربته بمقعد على رأسه، وأخيراً صدرت إلينا الأوامر بالذهاب إلى القصر، وكنا نبكى من الخوف والذعر، وبعد أن وبختنا والدة الخديو قالت لنا أن الانجليز سوف يسلمون عرابى إلى الخديو ليقتله شر قتلة،

وأمسكت بكشف طويل فيه كثير من أسمائنا مع العقوبات الموقعة علينا. وعندما علمنا بأن حياة عرابى مهددة ساد الوجوم والحزن فى دوائر القصر كأن أحدا من الأسرة نفسها قد مات.!

واختتمت الأميرة حديثها إلى المحامى الإنجليزى قائلة «بعد كل ما حدث.. لا يمكن أن يستتب أمن فى البلاد. لا لنا.. ولا لكم.. ولا لمصر..»

إخـــوان الوطنيـــة

من المفيد أن نلقى الضوء على مفهوم «الوطنية» عند رواد الفكر السياسى الإسلامى فى العصر الحديث، وفى طليعتهم الأستاذ الإمام محمد عبده.. فيحكى تلميذه وناشر أفكاره السيد رشيد رضا، أن الإمام كان يرى الوطنية عبارة عن تعاون أهل الوطن الواحد، المختلفى الأديان فى كل ما فيه عمرانه وإصلاح حكومته، وأن الإسلام لا يعارض فى شئ من ذلك كما يثبته شرعه فى العدل والمساواة، وأن معلم الجيل السيد جمال الدين الأفغانى كان يرشد تلاميذه وحزبه السياسى إلى وجوب اتحاد أهل كل قطر شرقى إلى التعاون على الأعمال الوطنية السياسية والعمرانية، وكان حزبه مؤلفاً من أذكياء الملل المختلفة.. وكتب الإمام محمد عبده عن شعار «مصر للمصريين» الذى انبثقت عنه الثورة العرابية، فقال: إن الدين الإسلامى الحقيقى ليس عدو الألفة، ولا حربا على المـ[illegible]، ولا

يحرم المسلمين من الانتفاع بعمل من يشاركونه في المصلحة، وإن اختلفوا عنهم في الدين.. ويقول: إن العارف بحقيقة الإسلام يكون أبعد عن التعصب الجاهلي، وأقرب إلى الألفة من أبناء الملل المختلفة وإن القرآن منبع الدين يقارب بين المسلمين وأهل الكتاب، ولكن أعداء الدين أفسدوا قلوب أهاليه، «ولا قلوب أقرب إلى الإصلاح من قلوب أهل مصر».

ويروى الأستاذ طارق البشرى في كتابه «المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية» أنه في أعقاب تعيين بطرس غالي باشا وكيلا لوزارة الحقانية؛ اتهمته إحدى الصحف بمحاباة الأقباط في الوظائف وغيرها، وردت صحيفة أخرى مشيرة إلى التحام المسلمين والأقباط بالألفة والمحبة، وتوارثهم ذلك عن أسلافهم، ووقوف القبط مع المسلمين في الحروب، وذكرت أن اختلاف الديني لم يحدث في مصر شقاقاً وطنياً في زمن من الأزمان، ولذلك لا توجد للأقباط في مصر «مسألة سياسية» كما يوجد لغيرهم في غير مصر من مسائل.. وفي ذلك الوقت كان الإمام محمد عبده منفياً في بيروت، بعد فشل الثورة العرابية، فلم يلتزم الصمت رغم بعد الديار عن هذه القضية، فكتب مقالاً في صحيفة «ثمرات الفنون» وأرسل إلى تلميذه وصديقه سعد زغلول يطلب إليه السعي في نشره في بعض صحف مصر.

وفى ذلك المقال، عرض الأستاذ الإمام لهذه المشكلة المصطنعة ولخص رأيه فى قوله: «إن التحامل على شخص معين، لا ينبغى أن يتخذ ذريعة للطعن فى طائفة أو أمة أو ملة، فإن ذلك اعتداء على غير معتد ومحاربة لغير محارب، أو كما يقال جهاد فى غير عدو، وهو مما ضرره أكثر من نفعه إن كان له نفع». ثم ذكر أن طائفة الأقباط «أظهرت بحسن سيرها مع المسلمين من مواطنيها ما أهلها لوجوب المحافظة على وصية النبى صلى الله عليه وسلم، وقد كان حسن حال الأقباط لصدق نبى الإسلام عليه الصلاة والسلام. على أن كثيراً من أسلاف هذه الطائفة كانوا أمناء على مال الحكومة المصرية في الدول الإسلامية المتعاقبة، بما أجادوا من صناعتى الحساب والكتابة فى تلك الأوقات، ولم تعهد لهم فتنة.. أما ما تخلو طائفة من وجود أشخاص ضعاف العقول أو ميالين إلى الشر، فعلى الناقدين أن يقصروا نقدهم على حال أولئك الأشخاص، ويستعينوا ببقية الطائفة وغيرهم من مواطنيهم على دفع شرهم..».

ويعرض الأستاذ البشرى نماذج لمقالات عبدالله النديم، خطيب الثورة العرابية حول مفهوم الوطنية عند المسلمين والأقباط، فكتب فى صحيفة «الأستاذ» بعد عشر سنوات من فشل الثورة، يقول:

المسلمون والأقباط هم أبناء مصر الذين ينسبون إليها وتنسب إليهم، لا يعرفون غير بلدهم ولا يرحلون لغيره إلا زيارة، قلبتهم الأيام على جمر التقلبات الدولية وقامت الدنيا وقعدت وهم هم.. إخوان الوطنية، يقصد بعضهم بعضا، ويشد أزره في مهماته، يتزاورون تزاور أهل البيت، ويشارك الجار جاره في أفراحه وأتراحه علما منهم بأن البلاد تطالبهم بصرف حياتهم في إحيائها، بالمحافظة على وحدة الإجماع الوطني الذي يشمله اسم مصر.

ومضى النديم في توضيح أفكاره فقال: ما أحوج المسلمين والأقباط إلى الالتئام بعد أن عمتهم المعارف وتحلوابالآداب.. وإن ذكاء نبهاء الفريقين يدفعهم إلى التمسك بحبل الارتباط الوطني.. ثم قال: إنه توجد جمعية إسلامية وأخرى قبطية «ونحن لا جمعية لنا تبحث في الوطنية.. إن تكوين جمعية من الفريقين يحول بينهما وبين النزعات الأجنبية»،وكانت تعبير «جمعية» هو المرادف لتعبير «المجتمع» في عصرنا.

ويستنتج البشرى من العبارة الأخيرة أن النديم كان يرمي إلى الدعوة إلى قيام تنظيم وطني جامع يقف ضد سياسة الاحتلال البريطاني في بذر بذور الفرقة لإحكام قبضته على البلاد.. ووعد النديم بالعودة إلى معالجة هذا الموضوع.. ولكنه لم يفعل.. فقد أمرت سلطات الاحتلال بإغلاق الصحيفة ونفي النديم من مصر.

سعد زغلول . . الأفغانى

كان السيد جمال الدين الأفغانى، وقد أغلقت فى وجهه أبواب التدريس فى الأزهر، يتخذ مجلسه المفضل فى قهوة متأتيا بميدان العتبة «يوزع السعوط بيسراه.. والثورة بيمناه..» وكان الطالب الأزهرى سعد زغلول، أحد الذين تلقوا بذرة الثورة من راعيها، فبقيت مستكنة فى وجدانه نصف قرن. حتى تفجرت فى عام ١٩١٩م كالإعصار وهو شيخ جاوز الستين، وسرى إشعاعها كما تسرى موجات الأثير فى أعظم ثورة شعبية عرفتها مصر فى تاريخها العريق.

جاء سعد إلى القاهرة، ليجاور فى الأزهر فى نفس السنة التى هبط فيها الأفغانى مصر.. فكأنهما على ميعاد.. وأقام الأفغانى فى مسكن متواضع فى خان أبى طاقية بحى الجمالية، والتف من حوله التلاميذ والمريدون يتشربون أفكاره فى الثورة والإصلاح، كما تتشرب الأرض العطشى قطرات

المطر.. وصحب الشيخ محمد عبده تلميذه وصديقه سعد زغلول، إلى حلقة الأفغاني.. وما إن رأى سعد الشيخ المهيب، واستمع إليه، حتى قال لنفسه: «هذا بغيتي» .. وأضحى سعد عضوا دائما في ندوة الشيخ.. وكان من عادة الأفغاني أن يتكتب تلاميذه في الموضوعات التي يتحدث فيها، كي يدربهم على قوة التعبير وترتيب الأفكار.. وكتب سعد مع غيره في «الحرية» فأعجب به الأفغاني، و علق قائلاً: مما يدل على أن الحرية ناشئة في مصر.. أن يجيد في الكتابة عنها هذا الناشئ..

وتفاعلت بذور الحرية في نفس سعد، مع اندلاع الثورة العرابية. كان وقتها شابا في الخامسة والعشرين، ويعمل ناظراً لقلم القضايا بمديرية الجيزة، بعد أن كان محرراً بالوقائع المصرية، ومساعداً لأستاذه محمد عبده.. لقد جرفته أحداث الثورة في أتونها.. فلما فشلت أصابه من أذى الاعتقال ما أصاب كل ثائر غيور. وفقد سعد وظيفته، وبات هدفا للمطاردة والتنكيل.. كان بوسعه أن يعتذر ويتزلف، ليسترد وظيفته، ولكن روحه الأبية أنفت من السقوط في الشرك الذى سقط فيه ضعاف النفوس، وإنما آثر أن يحترف المحاماة وهي يومذاك ـ كما يصفها العقاد ـ ليست بالمهنة الشريفة التي نعرفها اليوم،

وإنما كانت صناعة وضيعة مبتذلة يشتغل بها من لا يحسب المرافعة إلا مجالا للبذاء وطول اللسان وضربا من الاحتيال والكذب والمراوغة والاختلاس. ولكن سعدا صاحب النفس الأبية ارتفع بكرامته عن الدنايا. فارتفع بالمهنة نفسها حتى صارت من أشرف المهن.

* * *

ولم تنم عين السلطة الغالبة عن سعد، فقبضوا عليه وعلى شريكه فى مكتب المحاماة حسين أفندى صقر بتهمة الاشتراك فى جماعة سرية، أطلقت على نفسها اسم (جماعة الانتقام)، هدفها قتل الشهود والجواسيس الذين خانوا الثورة وإرسال خطابات تهديد بالقتل إلى الوزراء وكبار المسئولين المتعاونين مع الاحتلال.

وتحمل وثائق الثورة العرابية منشوراً وزعته الجمعية على قناصل الدول الأجنبية قالت فيه إن أهدافها تتمثل فى تحرير الوطن وطرد الإنجليز من مصر وإخراجهم من وظائف الحكومة والجيش.. ويؤكد المنشور حرص الجمعية على حماية أرواح الأجانب من كل الجنسيات والأديان، وتطلب منهم عدم إيواء جنود الاحتلال أو التعامل معهم.. وحددت الجمعية مهلة لتصفية هذه المعاملات. يتعرض بعدها الجانى للعقاب موتا،

واغتصاب أمواله، وطرد عائلته من البلاد.. واختتم المنشور بعبارة «فلتحى مصر، والموت للإنكليز».

ويبدو أن جمعية الانتقام كانت متطورة تنظيميا، فقد وضعت لنفسها قانونا أساسيا مكونا من ٢٠ مادة، يحدد شروط الانضمام للجمعية وطريقة العمل بها ونظام الأوامر والتكليفات وطريقة اختيار القيادات، والضمانات المكفولة للأعضاء فى حالة الاعتقال، وأسلوب التخفى، ونوعية الأسلحة التى يتدربون عليها.

وشكلت لجنة للتحقيق مع المتهمين، تضم عدداً من رجال القضاء الأجانب والمصريين، ولم تعثر اللجنة على دليل يدين سعداً وشريكه حسين صقر.

فأمرت بالإفراج عنهما، ولكنهما بقيا رهن الاعتقال أكثر من ثلاثة أشهر، لأن الحكومة كانت عازمة على نفيهما إلى أقاصى السودان، وكلفت عثمان ماهر باشا محافظ العاصمة بإعداد المذكرة بطلب نفيهما لعرضها على مجلس النظار، وأوشك الأمر بالنفى أن يصدر لولا أن ناظر الحقانية - حسين فخرى باشا - عارض فيه وقال: إن صدور الأمر بالنفى بعد حكم البراءة يعد تحديا للقضاة الأجانب الذين جيء بهم لتنظيم القضاء المصرى. فعدلت الحكومة عن النفى وبقى السجينان

معتقلين.. عندئذ كتب سعد إلى لجنة التحقيق: «إني لا أزال موضوعا في السجن مع تحقق اللجنة من براءة ساحتي مما نسب إلى، فالأمل إسعافي بإجراء أمر الإفراج على رعاية لجانب الحق وتنفيذاً للقانون وعلم النائب العام الإنجليزى - مستر ماكسويل - بأمر السجينين اللذين ترفض الحكومة إطلاق سراحهما رغم براءتهما، فأبدى تعجبه من هذا التصرف المريب، وأمر بالإفراج عنهما فوراً.. ولم يسع الحكومة إلا الإذعان.

وخرج سعد ليستأنف عمله في المحاماة.. سائراً على الصراط المستقيم الذي اختطه لنفسه، ولا يحيد عن المثل والأخلاقيات التي فطر عليها.. لا يقبل أبدا الدفاع عن باطل.. ولا يرفض أبداً الدفاع عن الحق.. وبقيت تلك شيمته حتى آخر العمر.

بين ثورتين

كانت الفترة الممتدة بين الثورة العرابية وثورة ١٩١٩، من أكثر فترات التاريخ المصرى غموضاً.. فلم نجد من الباحثين إقبالا على الغوص فيها وتحليل أحداثها رغم أن هذه الفترة كانت غنية بالأحداث التى وقع بعضها نتيجة فشل الثورة العرابية.. وجاء بعضها الآخر إرهاصا بمقدم الثورة الوطنية فى ١٩١٩. فإذا كانت هذه الفترة هى اللحد الذى احتضرت فيه ثورة، فإنها أيضاً الرحم الذى تخلقت فيه ثورة أخرى.

ويمكن تشبيه هذه الفترة التى امتدت ٣٧ سنة، بليل طويل حالك السواد جاء بعد غروب شمس العرابيين، وقهر الأمل فى قلوب المصريين.. ولكنه فى نفس الوقت كان بشيرا بميلاد فجر جديد.. وبعث الأمل مرة أخرى فى الصدور اليائسة.. فاستعاد المصريون ثقتهم بأنفسهم.. وهبوا يطالبون بالحرية والاستقلال.

فى هذه الفترة أصبح كرومر سيد البلاد بلا منازع، وصاحب الأمر والنهى فى كل مقدراتها، وأضحت دار المعتمد مقصد طلاب الحاجات والباحثين عن الثراء والجاه والمجد.. وبات الوزراء مجرد أشباح أو بصمجية بالقياس إلى المستشارين الإنجليز الذين استقدمهم كرومر من حوارى الإمبراطورية. وبثهم فى الوزارات والمصالح ومديريات الأقاليم. وصدقت فى وزرائنا مقولة أحد الكتاب الإنجليز: «نحن لا نحكم مصر.. وإنما نحكم الذين يحكمونها».

وشهدت هذه الفترة انتشار موجة الفساد والنفاق والوصولية.. كانت الهزيمة كالإعصار المدمر اكتسح المبادئ الخلقية والقيم الروحية.. وساد اليأس والقنوط حتى ظن الناس أن ليل الاحتلال ليس له صباح.

وكان من المؤسف أن نجد الأدباء والشعراء يدبجون قصائد المديح فى جبار الاحتلال كرومر.. وينشرون ما تجود به قرائحهم فى كل مناسبة إنجليزية. فإذا حل عيد ميلاد ملك الإنجليز تتابع الأعيان والوزراء والكبراء على دار الحماية لتقديم آيات التبريك والتهنئة.. وإذا مات الجنرال الغشوم كتشنر غرقاً فى بحر الشمال، انهمرت دموع الحزن عليه أنهاراً.. وخنع عليه الشعراء صفة الشهيد.. يتساوى فى ذلك كبار

الشعراء وصغارهم.. كان من المفجع أن تمسك الصحيفة، فتجد فيها قصائد من هذا النوع، تحمل أسماء شعراء كبار مثل: أحمد شوقى، وحافظ إبراهيم، وأحمد نسيم وغيرهم.. وكان من الطبيعى أن يقتدى بهم صغار الشعراء.. وأن تتأثر بهم الجماهير التى كانت تتلقف ما يكتبون بإعجاب وشغف..

وبدأ كرومر خطة جهنمية، لتغيير خريطة المجتمع المصرى.. ظهر معها وكأنه الفارس الموعود، الذى بعثت به الأقدار لتحقيق الأمانى القومية التى فشل الثوار فى تحقيقها.. لقد ثار المصريون على السخرة والظلم والغطرسة التركية والارستقراطية الشركسية التى احتكرت ملكية الأراضى، وكتمت أنفاس المصريين، وسعدت بفشل الثورة.. فلماذا لا يعمل كرومر على تغيير الهرم الاجتماعى بما يسمح بظهور طبقة من كبار الملاك المصريين تزاحم الفلول الشركسية وترثها..؟! وعمل كرومر على تحقيق هذا الهدف، من خلال إجراءات إصلاحية فى نظام الرى والصرف. وتنظيم الضرائب وإلغاء السخرة.. وكان له ما أراد.. وبرزت على سطح المجتمع فئة من كبار الملاك تدين بولائها للاحتلال، ليس عن كفر بالوطن، ولكن عن شعور بأن مقامهم ارتفع بقيام السلطة الجديدة التى أنقذتهم من طغيان السلطة القديمة، التى لم يكونوا يستطيعون لها دفعا.

وفى رأى محمد زكى عبدالقادر أن قيام هذه الطبقة واعتمادها على الاحتلال فى حمايتها من بطش الخديو، والكراهية المتأصلة في نفسها للحكم التركي.. كانت البذرة الأولى لنشوء «فكرة الاستقلال» عن تركيا وإنجلترا، وهى الفكرة التى حمل لواءها ونادى بها بعد ذلك حزب الأمة وأحمد لطفى السيد فى الجريدة.. وظلت هذه الطبقة أكثر انحيازاً إلى سلطة الاحتلال منها إلى القصر. ولعبت دوراً خطيراً فى الحياة السياسية المصرية، وكان لها شأنها فى ثورة ١٩١٩ وما تلاها من تطورات.. كما كان لها تأثيرها فى الحياة البرلمانية. وما تعرضت له من هزات واضطراب. واتخذت موقف العداء المستمر من القصر، والمهادنة المستترة للاحتلال، ليس عن رضاء به، ولكن عن خوف من استبداد السراى وبطشها.. كان الاحتلال يريد أن يبقى أطول فترة ممكنة فى مصر. وكان يعرف أن هذا الهدف لن يتحقق إلا إذا كسب ولاء أعيان المصريين ورضاهم.. ولن يفعل المصريون ذلك إلا إذا شعروا بأن حالهم قد تحسن اقتصاديا واجتماعيا.. بل يفوق حالهم على عهد إسماعيل.. واستطاع كرومر أن يغرس فى نفوس المثقفين فكرة الإصلاح التدريجى بديلا عن الثورة.. وبهذه الخطة الجهنمية نجح فى تأجيل الثورة لأكثر من ثلث قرن!.

شهيد أسيوط

كان البكباشى محمد كامل مأموراً لبندر أسيوط، حين اندلعت ثورة ١٩١٩ وامتد لهيبها إلى الصعيد، ودارت معارك طاحنة بين قوات الاحتلال والأهالى العزل فما كان من المأمور البطل إلا أن فتح غرفة «السلاحليك» على مصراعيها، وترك الثوار يغترفون منها البنادق والطبنجات ليقاوموا بها جحافل الغزاة..

كانت أسيوط قد علمت بنبأ اعتقال سعد ورفاقه ونفيه إلى مالطة، فخرج طلبة المعهد الديني ومدرسة الأمريكان ومدرسة إخوان ويصا والمدرسة الثانوية فى تظاهرة سلمية، يهتفون لسعد والثورة، ويرددون هتاف الثورة المجيد «الاستقلال التام أو الموت الزؤام».. فتصدى لهم جند الاحتلال المتمركزون فى أسيوط، وأطلقوا عليهم الرصاص.. فثارت مشاعر الأهالى، وشكلوا من بينهم لجنة محلية لتنظيم شئون الحماية والدفاع عن

المدينة.. وازدادت حدة التوتر، عندما أقدمت سلطات الاحتلال على اعتقال بعض الزعماء المحليين: المحامي أحمد علوان، والمحامي محمود بسيوني، ومحمد محفوظ باشا.. وتناقل الناس أنباء الإهانات البالغة التي تعرضوا لها في السجن، فازداد هياجهم.. وانطلقت الجموع نحو معسكرات الإنجليز، لتعبر عن سخطها.. فصادفت أكواما من التبن كدستها سلطات الاحتلال لغذاء الخيول، فأشعلوا فيها النيران، وتصاعد لهيبها إلى عنان السماء حتى بدت المدينة وكأنها شعلة من الوهج..

وفقد الإنجليز أعصابهم فأخذوا يطلقون الرصاص على المتظاهرين في وحشية.. وتساقط مئات الشهداء والجرحى، وسالت الدماء في الشوارع كأفواه القرب، مما دفع الثوار إلى مزيد من العناد والصلابة والإصرار على مقاومة الاحتلال، وشددوا من هجماتهم على المعسكرات البريطانية، حتى اضطر الإنجليز إلى تجميع أبناء الجالية البريطانية في مبنى المدرسة الثانوية وفرضوا عليها ستاراً حديديا من الحصار المسلح.. فكان الثوار ينقضون على الثكنة العسكرية في هجمات فدائية جريئة، مما أثار فزع سلطات الاحتلال، ودفعها إلى الاستعانة بسلاح الجو الملكي البريطاني.

ولأول مرة فى تاريخ الصعيد.. وفى صباح ٢٤ مارس ١٩١٩ .. قامت طائرتان حربيتان بصب حمولتيهما من القنابل على المدينة الباسلة، فى غارات وحشية، لم تفرق بين البيت والمستشفى والشارع والمدرسة.. وتساقط المئات دون أن ينال ذلك من روح الأهالى وصلابتهم.

وأمام هذا العناد الصعيدى، لجأت سلطات الاحتلال إلى أسلوب دنيء لإذلال الأهالى.. فأعلنت أنها ستقوم بتفتيش البيوت ليلا. وطلبت من الرجال مغادرة بيوتهم وترك نسائهم فيها.. ولم يستسلم الأهالى للتهديد الحقير، فهجرت العائلات البيوت إلى المقابر والكهوف والصحراء والأديرة، حفاظا على الأعراض من أن تمسها شراذم الاحتلال.

وعلم أهل أسيوط بقدوم قطار من الأقصر، يقل بعض كبار الضباط الإنجليز فى طريقهم إلى القاهرة.. وأرسلت مديرية أمن أسيوط إشارة إلى جميع مراكز ونقط الشرطة، لتشديد الحراسة على المحطات.. ولكن الضباط، بدلا من أن يشددوا الحراسة، أبلغوا الأهالى حتى لا يفلت منهم الصيد الثمين.. وتحركت جموع الثوار من القرى والنجوع نحو محطة ديروط، حتى إذا توقف القطار اندفعوا داخله كالسيل، وانهالوا ضربا على الضباط الإنجليز فقتلوا منهم اثنين، ومعهما خمسة جنود.. وكان لهذا الحادث أثره فى أسيوط، فشدد

الإنجليز الحصار على المدينة استعداداً للانتقام منها، وأخذوا في حفر الخنادق وإقامة المدافع الثقيلة.. وأرسل القائد البريطاني رسالة إلى البكباشي محمد كامل مأمور البندر يطلب إليه فيها التسليم.. فكان جواب الضابط الذي تحول إلى ثائر: لن تدخلوا المدينة إلا فوق أشلائنا.. وبدأت القذائف تمطر المدينة بوابل من النيران.. ولكن المأمور لم يستسلم.. وقام بتوزيع ما لديه من سلاح على الأهالي.. وتقدم مع جنوده للقيام بواجب الدفاع عن المدينة الصامدة، إلى أن وصلت تعزيزات هائلة من القاهرة.. وكان أول ما فعلته القوات البريطانية اعتقال مأمور أسيوط، وتقديمه إلى محكمة عسكرية، بتهمة التفريط في السلاح «الميري»، وتحريض الأهالي على التمرد.. وأصدرت المحكمة حكمها بإعدام البكباشي محمد كامل.. وتلقى الرجل الحكم في شجاعة نادرة.. وحاول وجهاء أسيوط إنقاذ رقبة المأمور البطل.. وقامت وفود منهم بمحاولة تخفيف الحكم عنه.. ولكن السلطات البريطانية أصرت على إعدامه.. وفي يوم ١٠ يونية ١٩١٩، سيق البكباشي محمد كامل، إلى ساحة الإعدام، داخل أحد المعسكرات البريطانية، ونفذ فيه الإعدام رمياً بالرصاص.. ويبقى اسمه في سجل الخالدين الذين أنبتتهم مصر على مدى تاريخها العريق.

شهيد حلوان

كان ضابط البوليس، مصطفى حمدى، عضوا فى المجلس الأعلى للاغتيالات أثناء ثورة ١٩١٩ .. وكان المجلس يضم نخبة من الشبان المتحمسين الذين أصبحوا فيما بعد نجوما فى المجتمع السياسي، مثل الدكتور أحمد ماهر باشا، الذى أصبح رئيسا لمجلس النواب، ثم رئيسا للوزراء، واغتاله المحامى محمود العيسوى، فى البهو الفرعونى بدار البرلمان فى فبراير ١٩٤٥ .. ومحمود فهمى النقراشي باشا، الذى أصبح رئيسا للوزراء، واغتاله طالب الطب البيطرى عبدالمجيد حسن، فى مصعد وزارة الداخلية فى ديسمبر ١٩٤٨ .. والمؤرخ والمحامى الشهير عبدالرحمن بك الرافعى .. وعبداللطيف بك الصوفانى .. والسفير محمد بك شرارة .. والفدائى القديم شفيق بك منصور المحامى، وعضو مجلس النواب، الذى نفذ فيه حكم الإعدام عام ١٩٢٥ فى قضية اغتيال السردار.

كان شباب الجهاز السرى، من العمال وطلبة كلية العلوم، يصنعون بأنفسهم القنابل المحلية لاستخدامها في قتل رجال الاحتلال البريطاني، وأعوانهم من الساسة المصريين الخارجيين عن الإجماع الوطني.. وكانت القنبلة عبارة عن قطعة من ماسورة محشوة بالمواد المتفجرة، ومعها زجاجة صغيرة تحتوى على حامض البكريك..

وكانت هذه القنابل شديدة الخطورة على حاملها لأنها تنفجر بمجرد اهتزاز الزجاجة واختلاطها بالمتفجرات وذات يوم من عام ١٩١٠، ذهب الدكتور أحمد واليوزباشي مصطفى حمدى، إلى صحراء حلوان لتجربة قنبلة جديدة في المنطقة المتاخمة للجباسات حيث تكثر أصوات الانفجارات في الجبل.. وألقى أحمد ماهر بالقنبلة بأقصى قوته ثم انبطح مع زميله.. ولكن القنبلة لم تنفجر.. فنهض مصطفى حمدى، وذهب إلى حيث سقطت القنبلة ليتفحصها، فلم يكد يمسكها بيديه حتى انفجرت وأطاحت بالجزء الأمامى من جبهته.. وارتاع أحمد ماهر، وهرول إلى زميله فوجد الدماء تنهمر بغزارة من رأسه، فأخرج منديله ليوقف الزيف.. ثم انتزع قطعة من قماش بطانة البالطو الذى كان يرتديه محاولا وقف الدم.. ولكن محاولاته باءت بالفشل، ولفظ الضابط الشاب أنفاسه.. وانتاب

الفزع أحمد ماهر، وهو يرى صديقه جثة هامدة، فى هذا الفضاء العريض.. فتركه حيث هو، وعاد إلى محطة حلوان وغسل يديه من الدم، ثم ركب القطار وعاد إلى القاهرة.. وذهب من فوره إلى بيت عبداللطيف الصوفانى، حيث كان باقى أعضاء الجهاز مجتمعين فى انتظار نتيجة اختبار القنبلة.. وأبلغهم ماهر بما جرى لزميله، وكان سليمان أفندى حافظ المحامى (وكيل مجلس الدولة، ثم وزير الداخلية فى عهد جمال عبدالناصر) يحضر الاجتماع، فأعطاه الحاضرون مبلغ ٢٠٠ جنيه، جوها من بينهم، ليبعث بها إلى أم الشهيد فى حوالة بريدية عن طريق مكتب بريد الفيوم.. وكان أحد شباب الفدائيين فى الإسكندرية، واسمه يعقوب أفندى صبرى، يحضر الاجتماع كذلك وقد جاء لتسلم حصة جهاز الإسكندرية من القنابل.

وفى اليوم التالى، ذهب أحمد ماهر والأستاذ عبدالرحمن الرافعى ومعهما يعقوب صبرى، إلى مكان الحادث، حيث دفنوا الجثة فى مكانها.. وعادوا إلى القاهرة وقد ظنوا أنهم صاحبها دفنوا سر إلى الأبد.. وبقى اختفاء الضابط لغزا على رؤسائه.. أما والدته، فقد أفهموها أنه سافر فى مهمة طويلة إلى استانبول، وكانوا يرسلوا إليها فى مطلع كل شهر حوالة

بريدية بعشرة جنيهات.. وبعد مرور خمس سنوات على الحادث، وبعد اغتيال السردار، وقع مالم يكن فى الحسبان.. فقد اهتزت أعصاب رجل الإرهاب الكبير شفيق منصور، وهو فى السجن، فكتب تقريراً تفصيلياً كشف فيه الستار عن قصة الجهاز السرى الذى ارتكب حوادث الاغتيالات أثناء الثورة، وعجز الإنجليز عن التوصل إلى خيط يدل عليه، بالرغم من المكافآت المجزية التى رصدوها لهذا الغرض.. وبلا أى مبرر، حكى شفيق منصور قصة الضابط مصطفى حمدى، والطريقة التى لاقى بها حتفه.. واهتز الإنجليز طربا لأنهم عثروا على أول اتهام يدين «ماهر» والنقراشى.. وقد كانت الشكوك تحيط بهما بشأن حوادث الاغتيالات، ولكنها كانت تفتقر إلى الدليل.. وجاءهم الدليل فى اعترافات شيخ الفدائيين شفيق منصور.

وكلفت السلطات الدكتور سيدنى سميث، كبير الأطباء الشرعيين، بمعاينة موقع الحادث الذى أشار إليه شفيق منصور.. فوجد بقايا عظام، وقطعا من الملابس متناثرة فى الصحراء، وقطعا من الزجاج والمعدن.. فأخذ كل الأشياء لفحصها فى المعمل، فتبين أن العظام لشخص واحد بين الخامسة والعشرين والثلاثين من العمر، وعلى الجانب الأيمن

من جبهته فجوة، وكثير من الثقوب فى الجانب الداخلى من الجمجمة، مما يدل على أن صاحبها قتل عن انفجار قنبلة.. كما عثر على بعض أزرار البدلة تحمل اسم الترزى.. كما أن الطربوش يحمل اسم صانعه من الداخل.. وكانت كل هذه المعلومات ، تنم عن اسم صاحبها وهو اليوزباشى مصطفى حمدى.

أما الشظايا المعدنية والزجاجية التى عثر عليها الطبيب الشرعى، فقد كانت تتضمن قطعا من اسطوانة حديدية وقطعة صغيرة من قضيب حديدى، وقطعة مفرطحة من الصفيح، وعنق زجاجة صغيرة.. وكان الدكتور سميث بحكم خبرته القديمة، يعرف طريقة صنع القنابل التى استخدمت فى حوادث الاغتيال أثناء ثورة ١٩١٩؛ فاكتشف أن هذه الشظايا تماثل تماما القنابل التى استعملت أثناء الثورة.. ومن سوء الحظ أن البوليس قام فى نفس الوقت بتفتيش منزل حفار كليشهات اسمه يوسف طاهر، فعثر على قنبلة فى بئر منزله، وأرسلت القنابل إلى الطبيب الشرعى لفحصها فوجدها مماثلة لشظايا قنبلة حلوان، ثم اتسعت المفاجأة حين تبين أن يوسف طاهر هو خال مصطفى حمدى.. الضابط الذى شاء القدر ألا يموت سره فى ذاك الفضاء العريض من صحراء حلوان.

الشيخ ١٣ يوليــة

كان الحاج أحمد جاد الله، يعمل خراطا فى ورش السكة الحديد.. كان رجلاً متدينا، لاتفارق المسبحة أصابعه، ولا تفارق الأدعيات شفتيه، ولا تظهر عليه علامات العنف والتهور.. ولا يتصور أحد، أن يكون هذا الشيخ الوقور، عضواً فى جهاز الاغتيالات التابع لقيادة ثورة ١٩١٩، وأن يستخدم خبرته الفنية فى تصنيع القنابل اللازمة لعمليات اغتيال جنود الاحتلال والخونة والمصريين المتعاونين مع سلطات الحماية البريطانية.

كان طلبة العلوم والطب الأعضاء فى هذا الجيش الخفى، قد نجحوا فى تصميم قنبلة محلية، وبقى عليهم البحث عن وسيلة لتصنيعها.. فطلبوا من قيادة الجهاز ترشيح بعض الخراطين لتنفيذ المهمة.. وكان المسئول عن جهاز العمال (جزمجى) اسمه محمد عثمان الطوبجى، فرشح اثنين من عمال العنابر،

أولهما الشيخ أحمد جاد الله، والثاني هو الأسطى إبراهيم موسى.. وتسلم العاملان التصميم، وقاما بتنفيذه، فصنعا قنبلتين تسلمتهما خلية الطلبة التى تضم سيد محمد باشا، الطالب بالمعلمين العليا. وأحمد عبدالحى كيرة طالب الطب، ويوسف العبد الطالب بالجامعة الأهلية، الذى دعا إخوانه إلى قريته (شبرا النملة) بمديرية الغربية لتجربة القنبلتين فى الحقول بعيدا عن أعين السلطة.. ثم عادوا إلى القاهرة، وأبلغوا قيادة الجهاز بنجاح القنابل، فطلبوا من الحاج أحد جاد الله تصنيع عشر قنابل أخرى، فأتم صنعها على الفور بالاشتراك مع الخلية السرية للعمال.. وبدأ الفدائيون فى تنفيذ مهامهم.. وأخذت القنابل تنهال على عبيد السلطان الخارجين على إجماع الأمة: يوسف وهبة باشا، رئيس الوزراء.. وإسماعيل سرى باشا وزير الأشغال.. ومحمد شفيق باشا، وزير الزراعة.. وحسين درويش باشا، وزير الأوقاف.. ولما وجد الحاج أحمد جاد الله أن القنابل التى صنعها قد آتت ثمارها ونجحت فى بث الذعر فى نفوس الحكام، استصغر أن يكون دوره مقصوراً على صنع القنابل، ورأى أن يشارك بالفعل فى العمليات التى يقوم بها نسور الجامعات.. فذهب إليهم قائلا: «لماذا لا تشركون العمال فى العملية ؟ لا يكفينا أن نصنع القنابل.. نريد أن

نضرب أيضا.. نحن العمال نتولى القضاء على الكفار (أى الإنجليز) وأنتم تأخذون الخونة من المصريين..».

واتفق الطلاب والعمال على هذه القسمة.. وتسلم الحاج أحمد مسدسين - وكان أسبوع لا يمر إلا ويجهز على ثلاثة من الجنود الإنجليز.. وكانت منطقة نشاطه فى الدراسة والحوض المرصود.. ولم تفلح عيون الإنجليز فى التوصل إليه برغم المكافآت التى كان يعلن عنها عقب كل حادث.. فقد كانت نفوس الناس كبيرة ومعنوياتهم مرتفعة، ولا يقيمون اعتباراً للمال الذى يأتى عن طريق خسيس.

وبقى سر الحاج أحمد جاد الله وزملائه العمال مغلقا، حتى وقع حادث السردار الذى اشترك فيه زميله إبراهيم موسى، فحكم عليه بالإعدام.. ثم كتب شفيق منصور اعترافاته المشئومة، وكشف فيها الستار عن دور أحمد جاد الله فى اغتيال الجنود الإنجليز، فألقت السلطات البريطانية القبض عليه.. وفتشوا بيته فأخرجوا من حفرة فيه صندوقا خشبيا يحتوى على مسدس وذخيرة تولى الطبيب الشرعى د. سدنى فحصها، فتبين أنها تماثل الأعيرة التى كانت تستخرج من جثث الإنجليز القتلى، قبل ثلاث سنوات.. ولم يعد لديه شك فى أن أربعة من القتلى لقوا مصرعهم بهذا المسدس الذى وجد ملفوفا فى كيس من الفانلة الرمادية ومخيط بطريقة بدائية..

وبإعادة تفتيش بيت الحاج أحمد، عثروا على الثوب الذى انتزع منه كيس المسدس.

وقدم الحاج أحمد إلى محكمة الجنايات، ومع ماهر والنقراشى فى مارس ١٩٢٦ .. وكان الهدف قطع رءوس زعماء جهاز الاغتيالات.. وتبارى كبار المحامين فى الدفاع عن المتهمين.. فتولى الزعيم مصطفى النحاس الدفاع عن أحمد ماهر.. وكان الزعيم سعد زغلول يعكف على دراسة ملفات القضية، وتنبيه المحامين إلى الجوانب التى تفيد المتهمين.. وأثناء إطلاعه على محضر تفتيش بيت الحاج أحمد جاد الله وجد أن ضابط البوليس قال إنه عثر على الصندوق بجوار «تقفيصة فراخ» أحمد جاد الله، بينما كانت زوجته تطل من نافذة بالدور الأول تشرف على تقفيصة الفراخ وهى تولول قائلة «أخيه.. أخيه.. لقوه يا أختى.. !!».. فاستدعى سعد زغلول الأستاذ رياض إبراهيم محامى الحاج أحمد، وطلب منه الذهاب إلى بيت جاد الله، ومعاينة المكان الذى ضبط فيه الصندوق بجوار تقفيصة الفراخ.. فاكتشف المحامى أن الصندوق لم يستخرج من البيت كما ذكر تقرير البوليس.. وإنما وجد فى الحارة التى يقع فيها المنزل، أى فى مكان يمكن لأى إنسان أن يصل إليه.. وكانت هذه المفاجأة كافية لإنقاذ رقبة جاد الله من حبل المشنقة.

وبعدالحكم على زعيم العمال بالبراءة، كان أول شيء فعله هو الذهاب إلى بيت الأمة لتحية زعيم الأمة .. وكانت مفاجأة جرت معها سلسلة من المفاجآت المدهشة. فقد تبين أن الزعيم «سعد» لم يكن يعرف شكل أحمد جاد الله.. فلما وجده أمامه بعد البراءة، اكتشف أنه نفس الرجل الذى كلفه الجهاز السرى بالذهاب إلى بيت الأمة قبل يوم من اعتقال سعد فى ٢٣ ديسمبر ١٩٢١، وتسلم مذكراته الخاصة لتكون بمنأى عن أيدى السلطات بعد اعتقال سعد.. وقد شهد مصطفى أمين هذه الواقعة وهو صبى مقيم فى بيت الأمة.. فلما ذهب جاد الله لتسلم المذكرات، قدم نفسه إلى سعد باسم (شيخ ١٣ يوليو)، وهو اسم كودى بصفته عضوا فى المنظمات السرية.. وأخيراً اكتشف سعد أن الشيخ ١٣ يوليه لم يكن سوى الحاج أحمد جاد الله الوقور الذى كان يقضى ليله فى العبادة والتهجد.. ويقضى نهاره فى صنع أجهزة الموت لأعداء الله والوطن.. ويفلت الرجل من حبل المشنقة، ويستأنف حياته العادية دون انتظار لمنصب أو جاه أو نفوذ.. وتنتهى حياته كما تنتهى حياة الملايين من الفقراء البسطاء الذين لا يتطلعون إلى الشهرة والمجد.

ويكفيهم أنهم أرضوا ضمائرهم.. وفى ذلك عزاء عن الجحود.

دولـــت فهمـــى

كان عبدالقادر محمد شحاته ـ الطالب بالمدرسة الإلهامية الثانوية ـ جالساً على مقهى بميدان باب الخلق يلعب «عشرة طاولة» مع صديق له، عندما تقدم منهما شاب متوسط الطول قمحى اللون، فسحب كرسياً وإنضم إليهما فى مباراة الطاولة وقدم نفسه باسم «فهمى».. وبعد التعارف وتبادل الأحاديث الودية، انصرف «فهمى» لحال سبيله، ولكن زيارته لعبدالقادر تكررت بطريقة مريبة.. كان يهبط عليه فجأة فى منزله، وهو فى زى عامل أحياناً.. أو زى أزهرى أو فلاح.. وأدرك عبدالقادر أن وراء الصديق الجديد سراً غامضاً، ولكنه حار فى تفسيره.. حتى جاء اليوم الذى كشف «فهمى» فيه عن حقيقة أمره.. قال له: اسمع يا عبدالقادر.. نحن نعرف الكثير عن شجاعتك، والأعمال البطولية التى قمت بها فى المنيا أثناء عدوان الإنجليز على أهلها العزل، ونعرف أنك أنت الذى

أشعلت الثورة فى المنيا.. والآن حان الوقت لأكشف لك عن مهمتى.. فأنا مندوب الجهاز السرى، فهل تقبل أن تكون عضواً معنا فى الجهاز السرى للثورة؟

قال عبدالقادر على الفور: نعم.. أقبل بلا تردد، وأقسم على حفظ السر.

وكان الجهاز السرى التابع لثورة ١٩١٩، يطارد الوزراء الذين يتعاونون مع سلطات الاحتلال البريطانى، ويطعنون الثورة فى ظهرها.. ويحطمون إرادة الأمة التى اختارت سعد زغلول وكيلا وزعيما ومتحدثا وحيدا باسمها فى مواجهة الإنجليز..وكان محمد شفيق باشا وزير الأشغال فى وزارة إبراهيم سعيد باشا قد ارتكب جريمة نكراء، حين وافق على إطلاق يد الإنجليز فى تغيير نظام الرى فى السودان، خدمة للمصالح الاستعمارية، وإلحاقا للضرر بالمصالح الوطنية.. وقررت قيادة الثورة قتله.

وفى يوم ١٩ فبراير ١٩٢٠، ذهب «فهمى» إلى عبدالقادر، وأبلغه أن الاختيار وقع عليه لاغتيال شفيق باشا.. ولقنه تفاصيل الخطة المرسومة بدقة.. وقام الشاب الجرئ بالعملية كما طلب منه، وألقى قنبلة على سيارة الوزير أثناء مروره فى العباسية، وانفجرت القنبلة، ولكن الوزير أفلت من الموت..

وقبض على الفدائى الجرئ.. وبدأت سلطات التحقيق تمارس معه أفظع ألوان التعذيب لتعرف منه أسماء قيادة الجهاز السرى للثورة، خاصة أن بعض شركائه فى المنزل شهدوا بأنه كان يبيت لياليه الأخيرة خارج البيت.» وهنا حدثت المفاجأة التى يرويها عبدالقادر فى مذكراته التى نشرها مصطفى أمين فى «الكتاب الممنوع».

«وإذا بى أتلقى، داخل السجن، رسالة من الجهاز السرى من خارج السجن بأن سيدة اسمها دولت فهمى ناظرة مدرسة الهلال الأحمر سابقاً، ستتقدم للشهادة وتقول: إنى كنت فى تلك الأيام أبيت عندها! وإنه يجب أن أعترف بهذا.. رغم أن هذا يسئ إلى سمعتى، وإلى سمعتها.. ولكنها قبلت أن تقوم بهذه التضحية! واستدعانى النائب العام توفيق رفعت باشا للتحقيق من جديد، ليسألنى: أين كنت أبيت؟ وكانوا يتصورون أن هذا السؤال هو الخيط الذى سيوصلهم إلى الجهاز كله! فقلت، وأنا أظهر الخجل: «إننى كنت أبيت عند السيدة دولت فهمى ناظرة مدرسة الهلال سابقاً».. وأصدر النائب العام على الفور أمراً بالقبض عليها.. فجاءت مكبلة بالحديد.. ودخلت سيدة حسناء إلى غرفة النائب العام.. وإذا بدولت هذه تهجم على وتقبلنى وتنادينى: «يا حبيبى! يا حبيبى!» واعترفت

بأننى أبيت فى بيتها، وأننى عشيقها.. وذهل النائب العام والحكمدار الإنجليزى.. وصدر الحكم بإعدام عبدالقادر شحاته، ثم خفف إلى الأشغال الشاقة المؤبدة.. وقضى الفدائى الشاب أيامه ولياليه فى ليمان طرة، وهو لا يكف عن التفكير فى أمر هذه السيدة التى ضحت بسمعتها من أجل إنقاذ شاب مصرى جسور.. كانت تملأ عليه خياله، وهو يقطع صخور الجبل.. وتؤنس وحشته وهو يأوى إلى زنزانته.. ويناجى طيفها النبيل عبر قضبان السجن الكئيب.. حتى أحس بأنه يحبها فعلاً.. ومضت أربع سنوات تعيسة قضاها عبدالقادر شحاته فى ليمان طرة، حتى جاءت حكومة الشعب الأولى برئاسة سعد زغلول، فأفرج عنه ضمن مجموعة من الفدائيين الذين سجنتهم سلطات الاحتلال.. وكان أول ما فكر فيه عبدالقادر بعد عودته إلى الحرية، هو البحث عن دولت فهمى ليتزوجها.. ولكن الجميع كانوا يتهربون منه، ويطلبون منه أن يكف عن السؤال عنها..

ولم يكف الشاب عن السؤال، حتى وجد نفسه أمام الحقيقة المفجعة. فقد عرف أن أهلها قد قتلوها، ليغسلوا العار الذى لحق بهم أثناء التحقيق.. ولم يدركوا أنها طوّقت أعناقهم بأكاليل الغار حين ضحت بسمعتها من أجل إنقاذ زهرة شباب مصر..

نموت وتحيا مصر

في أعقاب الاعتقال الثاني لسعد زغلول (ديسمبر ١٩٢١) اتخذت قيادة الوفد قرارا بتنظيم المقاومة السلبية للاحتلال.. وأصدرت عدة منشورات طالبت فيها المواطنين بمقاطعة الشركات والمحلات والبضائع الإنجليزية واستعمال البدائل المصرية، ونقل ودائعهم المالية من البنوك الأجنبية إلى بنك مصر الذى مضى على إنشائه عام واحد.. وفى اليوم التالى، اعتقلت السلطات البريطانية قيادة الوفد التى كانت تضم: حمد الباسل، وويصا واصف، وعلى ماهر، وجورج خياط، وعلوى الجزار، ومرقص حنا، ومراد الشريعى، وواصف بطرس غالى.. وعلى أثر ذلك، شكلت قيادة جديدة للوفد من: المصرى السعدى، وحسين القصبى، وفخرى عبدالنور، وسلامة ميخائيل، والشيخ مصطفى القاياتى، ونجيب الغرابلى.. وحملت الهيئة الجديدة راية الكفاح، فأصدرت بيانا

طالبت فيه الأمة بالاستمرار في المقاومة، واعتبار المقاطعة الاقتصادية شكلا من أشكال الجهاد، لأنه يصيب المصالح البريطانية في مقتل، ويعمل على تشجيع الرأسمالية الوطنية الوليدة، ويغرس في الشعب روح الانتماء للوطنية المصرية الخالصة.

وبعد الإفراج عن المعتقلين، انضموا إلى زملائهم الجدد، وتحولت قيادة الوفد إلى كتيبة نضالية تؤجج جذوة الجهاد لملاحقة المصالح البريطانية، وتسميم الآبار في وجهها.. وإنهالت المنشورات في كل أنحاء البلاد، تحض الجماهير على مقاطعة أنماط الاستهلاك الأجنبية، والإقبال على منتجات بلادهم حتى لو كانت أقل جودة أو أغلى سعراً عن مثيلتها الأجنبية.. واستجابت الأمة لنداء قيادتها الوطنية.. ونجحت المقاطعة حتى أوشكت المؤسسات البريطانية على الإفلاس، وتعرضت المنتجات الأجنبية للبوار والكساد.

وفي ٢٥ يوليو ١٩٢٢م أصدرت سلطات الاحتلال أمراً باعتقال سبعة من قيادات الوفد.. وبدأت الحملة باعتقال حمد الباسل ومرقص حنا وواصف غالي، وألقى بهم في ثكنات قصر النيل.. وكان مراد الشريعي في بلدته - سمالوط - فلما علم بنبأ القبض على زملائه ركب القطار إلى القاهرة وسلم

نفسه إلى سلطات الاحتلال.. وكذلك فعل علوى الجزار الذى قدم من شبين الكوم.. أما ويصا واصف فقد قبضوا عليه فى رأس البر.. كما قبضوا على جورج خياط فى الإسكندرية.. والتأم شمل الزعماء السبعة فى قشلاق قصر النيل، دون أن يعرفوا حقيقة التهمة التى اعتقلوا من أجلها، إلى أن بدأت الصحف البريطانية تنشر تصريحات كبار رجال الحكومة البريطانية، وجاء فيها أن الزعماء السبعة سيحاكمون بتهمة التحريض على قتل الإنجليز فى شوارع القاهرة، وأنهم سيواجهون عقوبة الإعدام.. واستقبل الأبطال هذه الأنباء بالسخرية وظلوا يمارسون نشاطهم اليومى فى لعب الطاولة ولا يتصورون أن يبلغ الهلع بالسلطات البريطانية إلى حد إعدامهم لمجرد دعوتهم الشعب إلى العصيان المدنى.

وهذه صورة وصفية للروح المعنوية العالية للأبطال السبعة سجلها مرقص حنا فى مذكراته التى نشرها الأستاذ مصطفى أمين، ويقول فيها: «كنا فى غاية الشجاعة.. ونؤمن بأننا دافعنا، بتمام الشرف والهمة والإخلاص، عن بلادنا وعن حقوقها. هل هذا جرم؟! إن العقاب غلى هذا الأمر كالعقاب على الأكل والشرب.. غريب أن يسمى نفسه شريفاً، ذلك الذى يسمى الدفاع عن الوطن إجراماً! إن الدفاع عن الوطن فضيلة

سامية، فكيف يكون شريفاً ذلك الذى يستعمل قوته وسلاحه ضد أمة عزلاء لينسطوا عليها ويسلب أصحابها أموالهم وأرزاقهم؟! إنهم يريدون عقابنا.. فليكن.. ولكن ماذا يريد أولئك المصريون الذين يتولون الحكم، ويدفعون الإنجليز إلى هذا العمل؟ وبأى وصف أصفهم؟ إن أحط الكلمات لا تكفى لوصفهم..».

ولما وجدت السلطات البريطانية أن تهمة التحريض على القتل، لا تستند إلى دليل، عدلوا الاتهام وحصروه في دائرة الحض على كراهية الحكومة واحتقارها.. وتسلم الأبطال قرارات الاتهام.. واتفقت إرادتهم على مقاطعة المحكمة، وعدم توكيل محامين للدفاع عنهم.. وأنابوا حمد الباسل، لإلقاء كلمة أمام هيئة المحكمة العسكرية البريطانية فى أول جلسة من جلسات المحاكمة التى عقدت فى مبنى محكمة استئناف القاهرة بباب الخلق.. ونهض حمد الباسل، يرفل فى ملابسه البدوية التقليدية، يقول فى صوت عميق اهتزت له جنبات المحكمة: باسم الشعب المصرى.. إننا نحن الوكلاء عن هذا الشعب، المكلفون بالمطالبة باستقلاله، ولهذا لا نستطيع أن نعترف بأى حال من الأحوال بقضاء محكمة أجنبية.. ولو أن هذه المحكمة العسكرية الإنجليزية تأخذ بتصريح الحكومة الإنجليزية أو تعتبره تصريحاً جدياً، (يقصد تصريح ٢٨

فبراير)، وهو أن مصر دولة مستقلة ذات سيادة، لكان حقاً عليها أن تعلن من تلقاء نفسها عدم اختصاصها بمحاكمتنا! إن لكم أن تحكموا علينا.. ولكن ليس لكم أن تحاكمونا..! مهما تكن العقوبة التى يروق لكم أن تشرفونا بها، فإننا سنقابلها بالسرور والفخار، لأنها خطوة إلى الأمام فى طريق المجد الذى تسير فيه مصر إلى مصيرها الخالد! ولو خرجنا من السجن فسنعود إلى جهادنا مرة أخرى.. ولو متنا.. فإن مصر لن تموت..!!

وخيم على القاعة سكون رهيب.. ووقف بقية المتهمين، فقال كل منهم: إن كلام حمد الباسل يعبر عن رأينا جميعاً.. ورفعت الجلسة للمداولة، ثم عادت بعد قليل، لتصدر حكمها بالإعدام على الأبطال السبعة.. وما إن فرغت المحكمة من تلاوة الحكم، حتى وقف حمد الباسل ليهتف: نموت وتحيا مصر..!! وضجت القاعة بالهتاف: تحيا مصر.. يحيا الاستقلال.. يحيا سعد..

وأرسل الحكم إلى اللورد أللنبى، فصدق عليه، وبعث به إلى حكومته للتصديق.. ووجدت الحكومة البريطانية أن إعدام الأبطال السبعة، سيؤجج لهيب الثورة من جديد، فخففت الحكم إلى السجن سبع سنوات وغرامة خمسة آلاف جنيه..

مظاهرة النســاء

اختارت اللجنة القومية العليا للمرأة، برئاسة السيدة الفاضلة سوزان مبارك يوم ١٦ مارس من كل عام يوما قوميا للمرأة تحشد فيه الجهود لتكريمها، وتلقى الأضواء على إنجازاتها وقضاياها ومشاكلها، وهذا اليوم يوافق ذكرى المظاهرة الوطنية التى قام بها النساء المصريات يوم ١٦ مارس ١٩١٩ بعد أسبوع من إندلاع الثورة الشعبية الكبرى واعتقال الزعيم سعد زغلول وصحبه ونفيهم إلى جزيرة مالطة على أيدى قوات الاحتلال البريطانى وكانت المظاهرات قد عمت شوارع القاهرة والمدن الرئيسية ... قام بها طلبة الأزهر وكلية الحقوق والمدارس الثانوية واغلقت المحال وتوقفت وسائل المواصلات وأعرب الشعب المصرى بكافة فئاته وطوائفه عن غضبته لاعتقال زعمائه. وكان الصدام العنيف بين جموع الشعب والجنود الانجليز الذين أطلقوا الرصاص لإخماد الثورة،

وتساقط الشهداء والجرحى، وسالت الدماء فى الشوارع دون أن يفت ذلك فى روح الشعب المتعطش إلى الحرية، ولم تكن المرأة المصرية أقل إقداما من الرجل، وشهدت شوارع القاهرة لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث والقديم أول مظاهرة نسائية صرفة ترفع الأعلام وتهتف للحرية وتندد بالاحتلال.

وقد وصف المؤرخ عبد الرحمن الرافعي مظاهرة النساء فقال: نظمت السيدات تظاهرة، فخرجن من جاردن سيتى، وسرن ماشيات وفى مقدمتهن ستة أعلام مكتوب عليها شعارات وطنية باللغتين العربية والفرنسية، وسارت المتظاهرات وخلفهن مركباتهن حتى وصلن إلى شارع قصر العينى وشارع سعد زغلول، ووقفن أمام بيت الأمة (بيت سعد زغلول) هاتفات لمصر وحياة سعد، ثم أقبلت قوة كبيرة من البوليس والجنود الانجليز فى سيارات مسلحة، فضربوا نطاقا حولهن، وظل الحصار نحو ساعتين وهن واقفات فى الشمس، وأرسلن باحتجاجهن إلى سفارات الدول، وجاء القنصل الأمريكي بنفسه واحتج على هذه الفظاعة، فصدر الأمر على عجل برفع الحصار، وتمكين السيدات من الخروج من النطاق المضروب حولهن، فركبن السيارات والعربات، وانصرفن إلى بيوتهن بعد أن وقفن إلى جانب الثوار محتجات على قتل الأبرياء مطالبات بحرية.

الغوانى يحتججن

وقد أثارت مظاهرة النساء المصريات دهشة المصريين جميعا. فقد كانت المرأة المصرية فى ذلك الوقت، لاتزال حبيسة البيت ولاتشارك فى الحياة العامة، وقد حيا شاعر النيل حافظ بك إبراهيم مظاهرة السيدات بقصيدة رائعة مجد فيها شعورهن وشجاعتهن، وحمل حملة لاذعة على مسلك الجنود الانجليز فقال:

خرج الغوانى يحتججن ورحت أرقب جمعهنه

فإذا بهن تخذن من سود الثياب شعارهنه

فطلعن مثل كواكب يسطعن فى وسط الدجنه

وأخذت يجتزن الطريق ودار «سعد» قصدهنه

يمشين فى كنف الوقار وقد أَبَنَّ شعور هنه

واذا بجيش مقبل والخيل مطلقة الأعنة

واذا الجنود سيوفها قد صوبت لنحورهنه

واذا المدافع والبنادق والصوارم والأسنة

والخيل والفرسان قد ضربت نطاقا حولهنه

والورد والريحان فى ذاك النهار سلاحهنة

فتطاحن الجيشان ساعات تشيب لها الأجنة

ولم تتوقف احتجاجات المرأة المصرية أمام البطش الانجليزى، فبعد أربعة أيام فقط من المظاهرة النسائية الأولى اجتمع السيدات فى الحديقة القريبة من النيل بجاردن سيتى، ومن هناك سرن ماشيات وفى مقدمتهن ستة أعلام كتب على أحدها باللغة العربية «إننا نحتج على سفك دماء الأبرياء، العزل من السلاح» وعلى الثانى «نحتج على قتل الأبرياء» وعلى الثالث «نطلب الاستقلال التام» أما الأعلام الثلاثة الأخرى فتحمل ترجمة فرنسية لهذه الشعارات... واجتازت المظاهرة شوارع جاردن سيتى فقصر العينى حتى وقفن أمام بيت سعد زغلول، وجاءت فرقة من الجنود الانجليز فضربت نطاقا حولهن لمدة ساعتين، فأرسلن باحتجاجات إلى سفارات الدول، وجاء القنصل الأمريكى بنفسه وشاهد هذا الحصار، فذهب إلى فندق سافوى حيث القيادة البريطانية واحتج على هذه الفظاعة، فصدر الأمر برفع الحصار فورا وانصرفت السيدات إلى بيوتهن دون وقوع أحداث دامية.

أول شهيدة مصرية

ورغم أن مظاهرة السيدات المصريات كانت سلمية، ولم تتجاوز الإعراب عن شعورهن الوطنى، فإن قيادة الاحتلال البريطانى جابهت هذه الاحتجاجات بالرصاص. وسقطت أول

شهيدة مصرية هي «شفيقة محمد» في فناء السفارة البريطانية وهي شابة لا يتجاوز عمرها ٢٨ سنة.

ففي يوم ١٠ ابريل ١٩١٩ قامت مظاهرة كبيرة من السيدات المصريات من مختلف الطبقات وذهبن إلى مقر المعتمد البريطاني وطلبن مقابلته ليرفعن إليه احتجاجا مكتوبا، فحال العساكر الإنجليز بينهن وبين مكتب المعتمد وضربوا حولهن حصارا بالبنادق والسونكيات، ومع ذلك لم يعبأن... وتقدمت إحداهن وهي شفيقة محمد، وهي تحمل العلم المصري في يد، والاحتجاج في اليد الأخرى، واخترقت الحصار، وجرت حتى وصلت إلى مكتب «ملن شيتهام» القائم بأعمال المندوب السامي البريطاني لأن اللورد اللنبي كان خارج مصر وقتئذ، فتناول الاحتجاج من شفيقة، ودعاها للدخول إلى مكتبه، فدخلت وراءه وأشار إليها بالجلوس، ولكنها رفضت قائلة: لن أجلس.. إنني مستعجلة! وتصفح شيتهام الاحتجاج وتظاهر بأنه لم يفهمه، مع أنه كان يجيد اللغة العربية قراءة وكتابة، وقال لشفيقة محمد: إن الاحتجاج مكتوب باللغة العربية.. ماذا تريدين؟ فأجابت: إنه احتجاج على الأعمال الوحشية التي يعاملنا بها جنودكم بدون ذنب إلا أننا نطالب بحرية مصر واستقلالها.. وسألها شيتهام: وما تلك الأعمال

الوحشية؟ فقالت: ضرب النار على أولادنا وأطفالنا الأبرياء ورجالنا المجردين من السلاح لمجرد احتجاجهم بالمظاهرات السلمية على منع زعمائنا من السفر لعرض قضيتنا على مؤتمر السلام، وذلك مثل باقى بلاد العالم، وتنفيذا لمبادئ الرئيس ويلسون.. وسألها شيتهام مرة ثانية: وهل هناك أشياء أخرى؟ فأجابت: نعم... نحتج على اعتقال زعمائنا ونفيهم إلى مالطة، وضاق صدر ممثل الاحتلال من شفيقة فوقف وقال لها بلهجة الإنذار:

تلك هى المرة الأخيرة التى نراك فيها تشاركين فى التظاهرات... وإلا... فسيكون الاعتقال مصيرك (!!)

فردت عليه شفيقة: ستراني فى كل تظاهرة...

واستدارت الشابة الوطنية لتغادر الغرفة بخطى ثابتة وهى مرفوعة الرأس، وعلم مصر فى يدها، ولم تكد تخطو بضع خطوات حتى أطلق الجنود الإنجليز عليها وابلا من النار فسقطت مضرجة فى دمائها الزكية... فأحاطت بها زميلاتها وهن يرددن: تحيا الحرية.. فى ذمة الله يا شفيقة.

وكانت شفيقة محمد أول امرأة مصرية تسقط برصاص الإنجليز منذ اندلاع الثورة الشعبية التى وقفت فيها المرأة إلى جانب الرجل فى المطالبة بالحرية والاستقلال.

بنك مصر

كان قيام بنك مصر في مايو ١٩٢٠ هو أعظم إنجاز اقتصادى لثورة ١٩١٩، ولكى ندرك أهمية هذا الصرح الشامخ فى تاريخ مصر الحديث، ينبغى أن نتذكر الحالة التى كان عليها الاقتصاد المصرى منذ التغلغل الاستعمارى الأوربى الذى بدأ فى عصر الخديوى اسماعيل، ثم بلغ ذروته باحتلال مصر عسكريا وخضوع الاقتصاد المصرى للسيطرة البريطانية، حتى تحولت مصر بكاملها الى مزرعة قطن لخدمة مصانع النسيج الانجليزية، وتحول المصريون الى مستهلكين للمنتجات، وانفتحت مصر على مصراعيها للبنوك والشركات والمؤسسات الأجنبية، وباتت مرتعا للمرابين الخواجات الذين انتشروا فى المدن، وانبثوا فى القرى يمتصون عرق ابنائها بارخص الأثمان كنت تمشى فى قلب القاهرة التجارى فلا تجد محلا مصريا عليه القيمة، فكل المحلات

الكبرى تحمل اسماء اجنبية: شيكوريل، شملا، أوركو، افرينو، بنزايون، صيدناوى، عمر افندى، داود عدس. حتى محلات البقالة الكبيرة احتكرها الطليان والأرمن واليونانيون، واقتصر نشاط المصريين على تجارة العطارة فى المحلات الصغيرة المكدسة فى الغورية وبين الصورين وعربات الفول والطعمية والكشرى التى تزين جدرانها بشعارات انهزامية تقول: ملك الملوك إذا وهب.. لا تسألن عن السبب..!! وكانت البنوك - عصب الاقتصاد - تابعة للمصالح الاجنبية بما فيها بنك الدولة القائم على إصدار العملة - البنك الأهلى المصرى - كان بنكا انجليزيا لحما ودماً.. ولا يحمل من سمات المصرية سوى الاسم المزيف.. فلم يكن أهليا.. ولا مصريا..!!

■ ■ ■

فى هذا الجو القائم.. وفى هذه الغابة التى تمرح فيها وحوش كاسرة. ظهر شاب مصرى مشبوب العاطفة، صادق الوطنية، متقدم الفكر اسمه طلعت حرب استحوذت على فؤاده فكرة أشبه بالخيال هى إنشاء بنك مصرى يعمل على تجميع مدخرات المصريين واستخدامها فى إنشاء صناعات مصرية وتمويل مشروعات مصرية.. ويعمل فيه مصريون ويستخدمون فى معاملاته اللغة العربية.. وعندما بلغ طلعت حرب سن الخامسة والعشرين أصدر فى عام ١٩١٠ كتابا

صغيرا عنوانه (علاج مصر الاقتصادى ومشروع بنك مصر أو بنك الأمة) واذا كان الخطاب يقرأ من عنوانه. فإن عنوان الكتاب يكشف عن مضمونه وهو انه لكى يتم الاستقلال السياسى فإنه من الضرورى أن تتوافر للوطن إمكانات التحرر الاقتصادى التى ترسى دعائم اقتصادية وطنية يستطيع الوطن أن يواجه بها الاختناقات التى سوف يجتازها فى مراحل نضاله مع الاستعمار.. تغذى كفاحه وتدعمه وتمنحه الصلابة وقوة الصمود...».

لقد وضع طلعت حرب يده على بيت الداء.. إن الاستعمار الاقتصادى هو الهدف الحقيقى للاحتلال.. ورأى بفكره الثاقب أن الاستقلال السياسى لن يكتمل إلا إذا تحررت البلاد من اغلال الرق الاقتصادى. وكتب بيده روشتة العلاج فى هذا الكتاب الصغير.. وكان العلاج قيام بنك مصرى خالص يرعى مصالح المصريين ويأخذ بيدهم من مهاوى العجز والخمول.

ولكن.. كيف يمكن لهذا المشروع الأسطورى أن يرى النور وسط الدياجير المظلمة التى تخيم على مصر فى ظل جبروت كرومر.. وتواطؤ عباس الثانى.. وسلبية كبار الملاك الذين هادنوا الاحتلال وارتبطت مصالحهم بمصالحه.. ولم ينظروا الى أبعد من أقدامهم فلم يتخيلوا إمكانية قيام بنك مصرى متحرر من

اغلال القهر الانجليزى يعمل فيه مصريون.. كانوا يتصورون أن حرفة المال والتجارة سر لا يتقنه سوى الخواجات..!

■■■

مثل هذا المشروع كان لا يمكن أن يرى النور إلا في أحضان ثورة شعبية وطنية تقلب موازين القوى وتفتح عيون الغافلين على حتمية الاستقلال الاقتصادى..

وقامت الثورة فى مارس ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول.. وتفتحت ينابيع الوعى فى الشخصية المصرية، وترددت اصداء الحرية فى جنبات الوادى وتاقت نفوس المصريين الى الحرية بمعناها الشامل.. وبأبعادها السياسية والاقتصادية والاجتماعية.. وارتبط شعار «الاستقلال التام أو الموت الزؤام» بشعار «مصر للمصريين» وتحرير المصالح المصرية من السيطرة الأجنبية، واستجاب المصريون إلى نداء سعد زغلول للمساهمة بقروش القليلة فى رأسمال (بنك مصر) .. ومن حصيلة هذه القروش تجمع مبلغ لا يزيد على ثمانين ألف جنيه كان هو النواة الأولى فى بناء الصرح الكبير.. وارتبط بنك مصر بثورة مصر وأصبح أولى ثمراتها المباركة.. وأروع إنجازاته العملية..

وكان تشجيع بنك مصر هدفا ثابتا من أهداف الثورة الوطنية.. فحين لجأت الثورة إلى أسلوب المقاطعة الاقتصادية

للمصالحة الأجنبية، طلبت من المصريين أن يسحبوا أموالهم من المصارف الانجليزية وأن يسحبوا أموالهم من المصارف الانجليزية وأن يودعها في بنك مصر، وجثتهم على شراء اسهم بنك مصر «حتى يبلغ رأسماله مبلغا يتناسب مع حالة البلاد الاقتصادية، وبذلك يتسنى للبنك أن يساعد في إحياء المشروعات الوطنية وتنشيط الصناعة والتجارة المصرية».

وشب الوليد عن الطوق واتسع نشاطه حتى بلغت شركاته ١٤ شركة تمارس نشاطها في جميع فروع الاقتصاد الوطني.. واثبت قدرة المصريين على الوقوف على اقدامهم.. وخرجت الى الأسواق منتجات مصرية اقبل عليها المصريون وهم يشعرون بالفخار والاعتزاز لأنها من صنع بلادهم.. وكان من بين الشركات التى اسسها بنك مصر شركة اسمها (بيع المصنوعات المصرية)

تخصصت في بيع السلع المصنوعة بأيد مصرية.. ولكنها تحولت الآن - في ظل الانفتاح - الى مركز لترويج السلع المستوردة مثل غيرها من شركات القطاع العام والخاص.. وتبدد الحلم الذى كافح من أجله طلعت حرب منذ ستين عاما على أيدى الغافلين الذين لا يدركون معنى الاعتزاز بالوطنية المصرية.

سنمار المصرى

ما إن فرغ طلعت حرب من بناء قلعة الاقتصاد الوطنى - بنك مصر - حتى كان جزاؤه نفس جزاء البناء الشهير (سنمار) الذى بنى قصرا

فخيما لأحد ملوك الفرس الأقدمين، فلما انبهر الملك من روعة البناء خاف من سنمار أن يبنى لغيرة افخم منه، فصعد به الى سطح القصر. والقى به من حالق، وبات جزاء سنمار رمزا على الجحود ونكران الجميل، وكان جزاء طلعت حرب الإبعاد عن الصرح الذى بناه على كاهله طوبة طوبة، ولكن عزاءه الوحيد أن البنك رسخت جذوره فى تراب مصر، وفاءت ظلاله على الروابى الخضر، وبات حقيقة ماثلة على صلابة الارادة الوطنية فى مواجهة البطش الاستعمارى..!

■ ■ ■

فعلى مدى عشرين عاما (١٩٢٠ ـ ١٩٤٠) استطاع «حرب» أن يجعل من بنك مصر بيتا مصريا خالصا يأوى إليه المصريون هربا من نار النفوذ الأجنبى الذى يأخذ بخناقهم، ويستنزف أموالهم، ويسخر بلادهم سوقا استهلاكيا لتصريف منتجات المصانع الانجليزية، فظهرت شركات بنك مصر لتبنى قواعد النهضة الصناعية والتجارية والأدبية والفنية «والثقافية، وبمقتضاها تحولت مصر من بلد زراعى خامل الى بلد مزدهر بالحركة والوعى، وانطلقت المداخن الى عنان السماء فى المحلة الكبرى وكفر الدوار لتقدم الى المصريين نسيجا من اقطان بلادهم، ودارت عجلة (مطبعة مصر) لترعى حركة التثقيف والتنوير وتقدم الى العقل المصرى ثمرات الابداع المصرى، وقام البناء فى مسرح الأزبكية ليقدم الى الناس فنا مصريا راقيا، وغذاء ثقافيا مفيدا، حتى صناعة السينما لم تفلت من نشاط طلعت حرب وقام ستوديو مصر فى صحراء الهرم ليرعى صناعة السينما التى كانت حكرا على الأجانب، واتسع نشاط ٢٤ شركة ليشمل كل مجالات العمل الوطنى من التأمين الى العقارات، ومن صناعة الزيوت والألبان إلى صناعة الأسمنت المسلح والمناجم والمحاجر، ومن السياحة والفنادق إلى النقل والملاحة البحرية والطيران.. وباختصار لم يترك طلعت حرب فرعا من فروع الاقتصاد إلا

غزاه، وأقام له شركة تحمل اسم (مصر) العزيزة، وبأموال مصرية خالصة، وبسواعد مصرية شابة وضعت فى موضع الاختبار فكشفت عن جدارتها، وتولد لديها الاحساس بالثقة والإعتزاز بالنفس والاعتزاز بالنسب المصرى، وأضحت شركات بنك مصر مدارس لتفريخ الخبرات التى حملت عبء النهضة الوطنية، واستردت أرضا كانت سداحا مداحا للغرباء والأجانب.

■ ■ ■

فعل طلعت حرب كل هذه الأفاعيل فى ظل الوجود الانجليزى المتسلط على شئون مصر والمتحكم فى إرادتها، وكانت مصر فى ذلك الحين قد حطمت بالثورة أغلال التبعية، ومضت تمزق أكفانها وتستروح نسمات الحرية، ولم يكن الطريق سهلا ميسورا.. كانت الحركة الوطنية تشق طريقها فى الصخر لاستكمال مسيرة الثورة، وتكافح كفاح الصابرين من أجل تحرير الارادة الوطنية من نفوذ ممثل الاحتلال القابع فى قصر الدوبارة، واستبداد الطاغية القابع فى قصر عابدين، وهى بين هذا وذاك تتقدم خطوة وتتعثر خطوات..

وفى هذا الجو المبلد بالدسائس والمؤامرات استطاع طلعت حرب أن يقود سفينة بنك مصر فى غفلة من عيون الاحتلال،

ولو شئت الدقة لقت أنها كانت غفلة الذئب الذى يترك فريسته حتى تتعثر فى شباكه وتسقط مستسلمة فى بؤرة الفشل والاحباط.. فى البداية كان الانجليز يظنون ان بنك مصر مشروع محكوم عليه بالفشل انسياقا وراء الوهم المستحكم بعدم قدرة المصريين على اقتحام دنيا المال والتجارة والصناعة، ولكن الأيام أثبتت لهم كذب ما يزعمون، ووقف البنك على قدميه كالمارد العملاق.. فلما ثارت غيوم الحرب العالمية الثانية، واشتدت قبضة الانجليز على اقتصاد مصر، حانت لحظة الانتقام من طلعت حرب، وهدم البنك على رأس بانية، فأوعزت الحكومة البريطانية الى مستشارها المالى فى مصر ليطلب من حكومة على ماهر أن تسحب من بنك مصر رصيد الحكومة المصرية؛ وودائع صندوق توفير البريد .

فتعرض البنك لأزمة خانقة فى السيولة النقدية، أراد طلعت حرب أن يعالجها بالطريق المصرفى السليم وهو اللجوء الى بنك الاصدار - وهو يومئذ البنك الأهلى - المصرى اسما والانجليزى فعلا - ليرهن عنده محفظة أوراقه المالية لقاء قرض يعيد للبنك استقراره ويوفر له السيولة المنشودة، بعد ان تزاحم الناس لسحب ودائعهم بسبب نذر الحرب، ولكن البنك الأهلى رفض الطلب بحجة أن طلعت حرب أفرط فى تقديم

قروض «معدومة» الى بعض عملاء البنك وانكشفت المؤامرة التى أفاض أحمد السوادى فى وصفها فى الفصل البديع الذى كتبه عن طلعت حرب ضمن كتابه (اقطاب مصر بين الثورتين) فقد بعث المستشار الانجليزى برسالة إلى طلعت حرب فحواها أنه من الممكن معالجة أزمة البنك إذا استقال الرجل، ونقل الأصدقاء الرسالة، وكانت دهشتهمم بالغة حينما وجدوا طلعت حرب وقد انبسطت أساريره وهو يقول: الحمدلله.. فليبق بنك مصر لمصر.. وليذهب الف طلعت حرب..

واجتمعت الحكومة المصرية، وبدلا من ان تصر على بقاء طلعت حرب على رأس البنك الوطنى، استجابت للمطلب الإنجليزى واعدّت مشروعاً تحل فيه الحكومة محل البنك الأهلى، واجتمع البرلمان لبحث الاتهامات الدنيئة الى وجهت إلى طلعت حرب وتبين للمجلس أن الرجل لم يزل كما كان دائما مشرق الصفحة وضاء الضمير، وأن كل ما قيل عنه مفتريات أملاها الحقد

ووافق البرلمان على مشروع على ماهر، وذهب طلعت حرب وجاء حافظ عفيفى المعروف برعايته للمصالح الإنجليزية، لينفذ الجزء الأخير من المؤامرة وهو ملاحقة رجال

الأعمال المصريين، الذين كانوا يتعاملون مع البنك، وفرض عليهم تسديد القروض فى وقت جفت فيه ينابيع النقدية، فبيعت بيوتهم فى المزاد

■ ■ ■

وقضى طلعت حرب أيامه الأخيرة فى سكون بعيدا عن الصرح الذى شيده بإصراره وجلده وايمانه. ولم يندم إذ أوى إلى الظل بقوة القهر، وبقى البناء شامخا يواصل عطاءه النبيل. وظل اسم طلعت حرب مقترنا بأغلى اسم لم يزل مرفوعا على هامات المصانع.. اسم مصر.

أغاخان فى مصر

فى أضابير التاريخ المصرى المعاصر قصة مشهورة تقول إن سلطات الاحتلال البريطانى كانت تعتزم تعيين «أغاخان» سلطانا على مصر، وذلك فى غضون الفترة القصيرة التى خلا فيها عرش مصر بعد نفى الخديو عباس حلمى الثانى، وتمنّع عمه الأمير حسين كامل عن الجلوس على عرش ابن أخيه، وبلغ من شيوع هذه القصة أن الدكتور محمد حسين هيكل باشا أوردها فى مذكراته فى معرض حديثه عن ظروف قبول السلطان حسين عرش مصر، وكيف أن هذا الأمير ما قبل العرش إلا انقاذا له من أن يجلس عليه حاكم اجنبى، ثم يقول هيكل «ان الأكثرين صدقوا هذه القصة، وكيف أن هذا الأمير ما قبل العرش إلا انقاذا له من أن يجلس عليه حاكم اجنبى، ثم يقول هيكل «أن الأكثرين صدقوا هذه القصة، و اعتقد أنها صادقة لأن الإنجليز دعوا بالفعل سمو الأمير أغاخان الهندى

قبيل ارتقاء السلطان حسين العرش، وتناقل الناس أنهم - أى الانجليز - يريدون أن يجعلوا أغا خان سلطانا على مصر، والجزء الأول من تلك الرواية - وهو عزم الإنجليز تعيين حاكم أجنبى لمصر - صحيح مائة فى المائة، أما غير الصحيح فهو أن يكون أغا خان هو السلطان المرتقب.

* * *

وترجع فكرة تعيين حاكم أجنبى لمصر إلى قرار بريطانيا إجراء تغييرات جذرية على وضعها الاستعمارى فى مصر بعد نشوب الحرب العالمية الأولى، وانضمام تركيا إلى صف عدوتها اللدود - ألمانيا - فقررت بريطانيا أن يكون وجودها فى مصر أبديا، وان تقطع خيوط الشرعية التى كانت تربط مصر بدولة الخلافة، وكان شكل العلاقة الجديدة يتراوح بين فكرتين لا ثالثة لهما، الأولى: «ضم» مصر نهائيا إلى التاج البريطانى فيصبح المصريون رعايا بريطانيين، وتنمحى الجنسية المصرية، ويرتفع العلم الإنجليزى ذو الصليب الأزرق على الديار المصرية، ويتولى الحكم حاكم عام بريطانى مثلما كان الحال فى الهند واستراليا ونيوزيلندا، وكان هذا المشروع بمثابة حكم بالاعدام على الشخصية المصرية، وإنهاء للوجود الشرعى والقانونى للدولة المصرية العتيدة.

أما الفكرة الثانية فكانت أخف وطأة وهى إعلان «الحماية» على مصر، بحيث تحل بريطانيا محل تركيا فى السيادة على مصر مع بقاء الحكم فى يد حاكم مصرى يعاونه وزراء مصريون، وبعد بحث مستفيض أخذت الحكومة البريطانية بفكرة «الضم» وأعدت بالفعل مسودات الأمر الملكى ليوقعه الملك جورج الخامس، وطلب من كيتشنر ـ بحكم خبرته السابقة فى مصر ـ ترشيح أحد كبار الإنجليز ليكون حاكما على مصر، ولكن حكومة لندن تراجعت فجأة عن قرارها بسبب معارضة رجال الوكالة البريطانية فى مصر، الذين حذروا حكومتهم من التهاب الشعور الدينى واحتمال نشوب ثورة وطنية فى صفوف المصريين، الذين كان بعضهم ـ حتى هذه اللحظة ـ يثق بوعود بريطانيا فى الجلاء عن مصر.. فما بالك بضمها نهائيا إلى ممتلكات التاج!!

لقد اجتمع هؤلاء المستشارون وكتبوا مذكرة إلى وزارة الخارجية البريطانية قالوا فيها: كيف ننتزع من دولة صغيرة آخر مظهر للكيان الفردى؟ ان قرار الضم سيكون نهاية لصدق كلمتنا.. فلن يصدقنا أحد.. وستكون لهذا القرار عواقب رخيمة.. ولم يعد مقبولا فى القرن العشرين أن نقضى على قومية الأجناس أو نحاول ابتلاعها ـ رحتى لو كان ذلك ممكنا ـ

فى أى مكان آخر ـ فلن يكون ممكنا فى مصر.. إن طمى النيل الذى امتصه العبريون والفرس والإغريق والرومان والاتراك امتصاصا كاملا ـ بحيث محا كل أثر لهم ـ هذا الطمى ليس بالبيئة المناسبة لأية تجربة أخرى..!!

وتراجعت الحكومة البريطانية عن قرار الضم.. وأخذت بفكرة الحماية، وخففت حكم الإعدام إلى الأشغال الشاقة المؤبدة.. وفى يوم ١٨ ديسمبر ١٩١٤ أعلنت الحماية المشئومة على مصر، وفى اليوم التالى أعلنت دار المعتمد البريطانى فى القاهرة قرار عزل الخديو عباس وتعيين الأمير حسين كامل سلطانا على مصر.. أو تعيينه موظفا فى دار المعتمد البريطانى بدرجة سلطان.. وبذلك تلاشت فكرة تعيين حاكم أجنبى على مصر..

* * *

أما مقولة تعيين أغا خان سلطانا على مصر، فقد كشفت عنها الدكتورة لطيفة سالم (كلية الآداب ـ بنها) فى كتابها (مصر فى الحرب العالمية الأولى) ويتبين منها أنها مقولة تفتقر إلى السند التاريخى.

فبالرجوع إلى مذكرات أغا خان نفسه نجد أن انجلترا قد

أحضرته إلى مصر - لا ليحكمها - ولكن ليهدئ من روح المصريين المتحفزة. يقول أغا خان: «كان الوضع السياسى مضطربا ودقيقا، كان عباس بالأستانة ومصر بدون حاكم، وكانت النتيجة فى مصر شيئا يقارب الفوضى».. لقد ذهبت إلى مصر مع زميل لى وانصرفنا فورا إلى أداء مهمتنا الدقيقة الشاقة المتشعبة إلى طبقات كثيرة من المجتمع المصرى، فكان علينا أولا أن نكسب القصر والعلماء رؤساء جامعة الأزهر، كما كان هناك عامة الشعب المصرى منهم المتعلمون الذين يجلسون فى المقاهى يطالعون ويناقشون إلى ما لا نهاية أخبار الحرب.. والفلاحون الذين كانوا ولايزالون المصدر الحقيقى لقوة مصر.. كان علينا أن نقنع هؤلاء بأن يؤازروا قضية الحلفاء».

إذن فلم يحضر أغا خان إلى مصر كأمير ليقفز إلى عرشها.. ولكنه جاء إليها كعميل مهمته كسب ولاء المصريين للتاج البريطانى، فكان شأنه شأن جميع العملاء الذين أطلقتهم بريطانيا طابورا خامسا لإخماد الثورة فى نفوس الشعوب المقهورة.

ولكن من هو هذا العميل الذى يعمل برتبة أمير؟

قاطع طريق

اكتسب «أغاخان» صيتا عالميا فاق شهرة نجوم السينما ولاعبى الكرة، وعلماء الذرة وزعماء الدول وكبار المصلحين، مع أنه لم يكن شيئا من هؤلاء، ولكنه جمع فى شخصيته الغريبة شيئا من كل هؤلاء، وعندما يذكر اسم «أغاخان» تتبادر إلى الذهن صورة ذلك الرجل الذى عاش حياته فى العواصم الأوروبية مفتونا بملكات الجمال، وعارضات الأزياء، مشغولا بكل متع الحياة. وكان اتباعه يزنونه كل عشر سنوات بسبائك الذهب والبلاتين وقطع الماس النادرة إجلالا وتعظيما لمكانته عندهم، ولا غرابة فى ذلك فقد اضفوا عليه صفة الألوهية، فلما مات اختاروا أسوان لتكون مثواه الأخير.

والحديث عن أغاخان لا يكتمل إلا بالحديث عن طائفة (الإسماعيلية) التى تولى زعامتها على مدى ستين عاما،

فجدد شبابها، وانتقل بها من غياهب الخمول والضعف والفقر، إلى دائرة الضوء والشهرة والمال والنفوذ.

والإسماعيلية هى إحدى فرق الشيعة التى تتفق جميعها على أحقية الإمام على بن أبى طالب، بالخلافة ممن سبقه من الخلفاء الراشدين الثلاثة، رضوان الله عليهم أجمعين، ولكن الإسماعيلية تختلف عن غيرها بأنها سلكت طريقا شططا، وقالت فى على بن أبى طالب قولا فظيعا، أولئك هم الغلاة الذين اختلطوا بالمذاهب والمعتقدات التى كانت سائدة منذ القدم فى الهند والعراق وفارس واليونان، واخذوا من كل مذهب بطرف، وبقدر ما أخذوا وتوغلوا.. بقدر ما بعدوا عن تيار الإسلام المصفى، وصنعوا من كل ذلك نسيجا يناقض المقرر الثابت من الأحكام والعقائد الإسلامية.

وتعرض «الإسماعيلية» كغيرهم من طوائف الشيعة، للاضطهاد والقهر، فهاجروا من الشرق إلى الغرب وكونوا تنظيمات بالغة السرية والتعقيد، وأثاروا القلاقل والاضطرابات داخل الدويلات الإسلامية المفككة، ونجح الانقلاب الذى دبروه فى المغرب، فأقاموا دولة الفواطم التى لم تلبث أن انتقلت إلى مصر عن طريق الغزو العسكرى، فبنوا مدينة القاهرة، وأقاموا الدولة الفاطمية التى حكمت مصر زهاء قرنين

دون أن تفلح فى استمالة المصريين المسلمين إلى عقيدتها الشاذة، فالمصريون الذين عرف عنهم التوسط والاعتدال فى التدين والبعد عن الغلو والشطط، رفضوا اعتناق مذهب الدولة الرسمى حتى اندثر بزوال الدولة الفاطمية، فلا تجد مصريا واحدا يعتنق مذهبا شيعيا بالرغم من حب المصريين لأهل البيت.

* * *

وفى عصر الخليفة الفاطمى المستنصر، تعرضت الحركة الإسماعيلية للانشقاق بين ولديه: المستعلى ونزار، ففريق تمسك بإمامة المستعلى، ولكنهم تفككوا عبر القرون ولم يبق منهم الآن سوى طائفة (البهرة) الذين ينتشرون فى الهند واليمن، ومعظمهم من أثرياء التجار، وهم الذين نجحوا فى إقناع الرئيس الراحل أنور السادات بالسماح لهم بتجديد مسجد الحاكم بأمر الله الملاصق لباب الفتوح، وانفقوا على عملية التجديد عشرات الملايين من الجنيهات كى يجعلوا منه تحفة معمارية رائعة، وهم لم يفعلوا ذلك إلا تمجيدا لإمامهم المتأله الحاكم بأمر الله، مدفوعين بالحنين إلى استعادة مجدهم القديم فى عاصمة المعز.

أما أتباع نزار فقد تعرضوا للاضطهاد من جانب الحكومة الفاطمية. ففروا من مصر، ونجح أحد زعمائهم - وهو الحسن الصباح - فى إقامة دولة الحشاشين فى شمال ايران، وهى الدولة التى كانت تتسل منها جحافل الفدائيين لاغتيال زعماء وقادة العالم السنى، حتى أثاروا الفزع والرعب فى قلوب الملوك والسلاطين، إلى أن قضى عليهم خاقان المغول هولاكو، فلم تقم للنزارية قائمة إلى أن ظهرت بعض بقاياهم فى إيران فى أواسط القرن التاسع عشر تحت اسم «الأغاخانية» الذين ينتمى إليهم أغا خان الثالث موضوع هذا الحديث.

* * *

والاسم الصحيح لأغا خان الثالث هو: محمد الحسينى شاه، أما جده أغا خان الأول واسمه (حسن شاه على) فقد كان قاطع طريق ظهر فى إيران فى منتصف القرن الماضى واستطاع أن يجمع حوله عددا من الفتوات من الإسماعيلية وغير الاسماعيلية وكون منهم عصابات كانت تنقض على القرى والقوافل حتى ذاع صيته فى جميع أنحاء إيران، وأصبح له نفوذ واسع على أتباعه وبات مصدر قلق للأسرة الحاكمة.

وفى ذلك الوقت كان الإنجليز يعملون على بسط نفوذهم فى إيران. وكعادة الإنجليز فى بث الدسائس والفتن، وصنع

العملاء، واستمالة كل طامع فى الجاه والثروة، فقد وجدوا ضالتهم فى هذا «اللص الشريف» فاتصلوا به، وزينوا له القيام بانقلاب ضد الشاه، على أن يتولى هو حكم فارس تحت رعايتهم، وتمت المؤامرة الإنجليزية، وأعلن قاطع الطريق حسن شاه الثورة، ولكنها فشلت، وقبضت عليه السلطات الإيرانية وزج به فى السجن، عندئذ تدخل الإنجليز واقنعوا الشاه بالعفو عن الثائر الهمام على أن يغادر إيران، وبالفعل خرج حسن شاه على من السجن تحيط به هالات البطولة المصطنعة، فدفع به الإنجليز إلى أفغانستان ليلعبوا به كورقة فى صراعهم هناك مع روسيا، ولكن الأفغان تصدوا له فرحل إلى الهند واتخذ من مدينة بومباى قاعدة لنفوذه الجديد. وأراد الأنجليز أن يلعبوا به مرة ثالثة فى السيطرة على درة التاج البريطانى، فجعلوا منه إماما لطائفة الإسماعيلية النزارية، وخلعوا عليه لقب (أغاخان) ومنحوه السلطة المطلقة على أتباعه الإسماعيلية الذين فرحوا بعلو شأنهم، بعد أن ظلوا مغمورين طوال عدة قرون. وبظهور إمامهم الذى ظل فى الستر والكتمان مئات السنين، بدأ أغاخان ينظم صفوف الإسماعيلية تحت العلم البريطانى حتى مات سنة ١٨٨١ فخلفه ابنه (أغا على شاه) وكان على درجة عالية من الثقافة ويجيد

عدة لغات أفادته فى نشر التعليم بين طائفته. ووضع الأساس المادى والثقافى الذى بنى عليه ابنه أغا خان الثالث مجده المرموق.

عابد البقرة

جمع أغاخان فى شخصيته متناقضات عديدة، كان زعيما دينيا لأتباع يضعونه فى مرتبة الألوهية انسياقا وراء الفكر الإسماعيلى الباطنى الذى يتبنى هذه الخزعبلات منذ عصر الحاكم بأمر الله، وإلى جانب هذه الصورة المقدسة لأغاخان فى نظر أتباعه. كان نجما من نجوم المجتمع الأوربى يخلب قلوب العذارى ويتسع قلبه الكبير جدا للفاتنات والغانيات وملكات الجمال، وكان فى نفس الوقت رائدا من رواد الإصلاح الثقافى والاجتماعي.. يقيم الجامعات والمعاهد ومراكز البحوث، والأندية، حتى انتقل بطائفته من حضيض التخلف والرجعية إلى عالم القرن العشرين، وكان يحثهم على أن يغترفوا من منهل الحضارة الغربية كما شرب هو منه، ويتسلحوا بالعلم والمدنية ولا يتخلفوا عن المجتمعات الأخرى،

ولم تمنعه زعامته الطائفية من أن يكون مسلما عالميا يخلع رداء الطائفية عند الملمات ويقف إلى جانب قضايا الإسلام والمسلمين في كل مكان من العالم، كان ينظر إلى المسلمين عامة فى الهند نظرة خالية من التعصب الطائفى وينادى بأن يأخذوا مكانهم الطبيعى فى الحياة السياسية والاجتماعية والثقافية فاشترك مع غيره من زعماء المسلمين عام ١٩٠٧ فى تأسيس «الرابطة الإسلامية» وانتخب رئيسا لها عام ١٩١٤ وكانت هذه الرابطة تجمع كلمة المسلمين جميعا على اختلاف مذاهبهم وتعمل على النهوض بمستواهم، وهذه الرابطة تطورت إلى حزب سياسى كان له خطره فى تاريخ الهند الحديث، وترتب على أعماله نشوء دولة باكستان.

* * *

وربما لا يعلم الكثيرون أن (محمد على جناح) مؤسس دولة باكستان كان من أتباع الطائفة الإسماعيلية، ومع ذلك فقد كان أغاخان من المعارضين لقيام دولة إسلامية مستقلة فى الهند، ويقف إلى جانب الرأى الذى يأمل فى تحقيق الوحدة الوطنية بين المسلمين والهندوس، ويعارض تقسيم الهند إلى كيانات طائفية.

والمؤرخون الذين كتبوا عن أغاخان يرصدون له عديدا من المواقف التى تخلى فيها عن صبغته الطائفية، ولعل أبرز هذه المواقف دفاعه المجيد عن بقاء الخلافة الإسلامية فى تركيا بالرغم من العداء التقليدى بين الأتراك «السنة» والإسماعيلية «الشيعة» وكان أغاخان يعزز العثمانيين بالأموال الطائلة ليظلوا رمزا لقوة الإسلام والمسلمين.

وتزوج أغاخان أربع مرات دون أن يجمع بين زوجتين، وكانت أولى زوجاته أميرة إيرانية هى البيجوم أى السيدة (شاه زادى) ولكنها توفيت بعد سنوات قليلة، فتزوج فتاة إيطالية هى (تريزا ماجليانو) وأنجب منها ابنه الأكبر (على خان) الذى تزوج نجمة هوليود العالمية ريتا هيوارث وأنجب منها فتاة اسمها ياسمين ثم تزوج على فتاة انجليزية، أنجبت له كريم الذى تولى إمامة الإسماعيلية بعد وفاة جده.

وفى سنة ١٩٢٧ أعجب أغاخان بفتاة فرنسية كانت تبيع السجائر والشيكولاتة فى كشك بجوار مقهى الدوم بحى مونبارناس بباريس هى (اندريه كارون) وأنجب منها ابنه الثانى صدر الدين. وفى عام ١٩٤٤ تزوج عارضة أزياء انتخبت ملكة جمال العالم هى (لابروس) التى اعتنقت دينه وعقيدته الإسماعيلية وبقيت معه إلى أن مات عام ١٩٥٧

وهى التى تعرف باسم البيجوم «أم حبيبة» ولاتزال تحرص على الحضور إلى أسوان لقضاء فصل الشتاء فى قصرها الذى يقع فى سفح التل الذى يعلوه قبر زوجها، ولاتزال رحلتها اليومية معروفة حيث تصعد كل صباح لتضع وردة حمراء على ضريح أغاخان.

* * *

ولا ينبغى إنهاء الحديث عن أغاخان دون توضيح مسألة «الألوهية» التى خلعها عليه اتباعه، وكان الظن أن هذه المسألة من قبيل المبالغة أو التشنيع الذى يتعرض له الإسماعيلية من جانب خصومهم، ولكن الدكتور محمد كامل حسين - وهو من أدق الباحثين فى تاريخ الإسماعيلية وعقائدهم يروى لنا قصة غريبة تؤكد ان أغاخان كان سعيدا بمعتقدات أتباعه فيه، وله فيها تبرير غريب.

يقول الدكتور محمد كامل حسين فى كتابه (طائفة الإسماعيلية تاريخها، نظمها، عقائدها): ومن ذكرياتى معه رحمة الله عليه، أنى كنت اناقشه فى بعض المسائل الفلسفية الخاصة بتطور عقيدة الإسماعيلية، وطالت المناقشة وتفرعت من موضوع إلى موضوع مما جعلنى أعجب أشد الإعجاب بعقليته وثقافته وسعة إطلاعه، واحاطته بكل ما يتعلق

بالإسماعيلية احاطه تامة، فاستاذنته فى توجيه سؤال إليه ربما أغضبه، فلما وعدنى بعدم الغضب قلت له: لقد أدهشتنى بثقافتك وعقليتك، فكيف تسمح لاتباعك بأن يدعوك إلها؟

فضحك أغاخان طويلا جدا، وعلت قهقهاته، ودمعت عيناه لكثرة الضحك ثم قال:

- هل تريد الاجابة عن هذا السؤال: ان القوم فى الهند يعبدون البقرة.. ألست خيرا من البقرة!!

ويعقب الدكتور محمد كامل حسين على هذا التبرير العجيب قائلا: فلم أحر جوابا بعد ذلك، وخرجت من عنده وأنا أفكر فى هذا الرجل الذى أعتقد فيه اتباعه الألوهية، أو على الأقل أن نور الله حل به، وكان هو يعلم أنه ليس بإله ولم يمسسه نور الله، ومع ذلك ترك أتباعه فى اعتقادهم دون أن يرشدهم إلى الحقيقة، وترك الناس يتقولون فيها الأقاويل، وهو يسخر من هؤلاء وهؤلاء. ويستمر فى حياته التى اختارها لنفسه دون أن يجعل لاحاديث الناس عنه أثرا، أو يقيم لهم وزنا.

صعيدية من لندن

كانت (لوسى دف جوردون)، من الأجنبيات القليلات اللاتى وقعن فى غرام مصر، فأحببنها حبا خالصا واتخذتها موطنا وسكنا .. وقد حتمت الأقدار على لوسى، أن تقضى فى مصر السنوات السبع الأخيرة من عمرها، فيما بين سنتى ١٨٦٢ ـ ١٨٦٩، فاندمجت فى نسيج المجتمع، وخالطت الفلاحين فى قراهم الكئيبة، وعاشت أوجاعهم وبؤسهم بلا استعلاء أو غطرسة، حتى وصفت نفسها بأنها مصرية عربية، ووصفها البعض بأنها مسلمة .. ورغم أنها عاشت فى الأقصر بين أحضان الآثار القديمة، إلا أن هذه الآثار لم تقع فى بؤرة شعورها، مثلما حدث لمعظم الأجانب استوطنوا مصر .. ولأنها كانت تؤمن بأن الأحياء أجدى من الأموات، فقد صرفت كل همها فى مخالطة أحفاد الفراعنة، وهم يعانون الضنك والشقاء والتعاسة، وكانت تدفعها رغبة جياشة فى

التشبث بالحياة، والانتصار على المرض اللعين الذى ينهش صدرها، وجمعت بينها وبين أهل مصر وحدة الألم ، وقوة الانتصار على العدم، فأقبلت على الحياة بكل طاقتها، ورحب بها أهل الأقصر ترحيبا حاراً، وأنزلوها منزلة التكريم، وأطلقوا عليها من الألقاب ما يتكافأ مع نبلها .. فقد كانت تستقبلهم فى بيتها والبشاشة تملأ وجهها فسموها «البشوشة» ورأوها تشاركهم احتفالهم بموالد الأولياء فسموها «الشيخة» وتلقوا العلاج على يديها فسموها «نور».

كانت لوسى تنتمى إلى عائلة إنجليزية أرستقراطية .. فقد كان أبوها أحد رجال الفقه القانونى بجامعة لندن ، وكانت أمها على درجة عالية من الثقافة، وكان بيتهما ملتقى كبار الفكر والسياسية والأدب. من أمثال شارلز ديكنز وتوماس كارليل وجيمس ميل، والد المفكر السياسى الشهير جون ستيوارت ميل، الذى كان رفيق صباها .. وهيأت هذه البيئة للفتاة نضجا عقليا وذهنيا، وألبستها خصالا راقية تتمثل فى حب العدل والتسامح وشجاعة الرأى والنظر إلى الأمور نظرة موضوعية خالية من التعصب والهوى .. فلما بلغت لوسى سن الزواج، اقترنت بالسير إكسندر دف جوردون وأنجبت منه ابنة .. وطافت الأسرة فى أنحاء القارة الأوروبية وهى يومئذ تفور

بالجدل والصخب فى أعقاب الزوبعة التى خلفتها حروب نابليون .. وشاركت لوسى فى هذه الحياة الفكرية الخصبة . وبينما هى تخوض هذا المعترك الثقافى تمكن منها داء السل اللعين، وهى فى ريعان الشباب، فى وقت لم يكن الطب قد توصل بعد إلى علاجه علاجا ناجعا، فنصحها الأطباء بالابتعاد عن الأجواء الباردة فذهبت إلى جنوب أفريقيا، ولكنها لم تتقدم صحيا، فعادت إلى انجلترا فنصحوها بالذهاب إلى مصر، فشدت الرحال إلى الإسكندرية، ومنها إلى القاهرة، ثم أقلها مركب نيلى إلى صعيد مصر، حيث استقر بها المقام فى الأقصر وأقامت فى بيت يسمى (بيت فرنسا) يقع على تل من الرمال، كان يغطى معبد الأقصر، ويطل على مسجد أبى الحجاج من ناحية، ويطل على النيل من ناحية أخرى.

وفى هذا البيت العتيق الذى كان أشبه بالدوار، عاشت لوسى حياة غاية فى البساطة، تتودد إلى الناس، وتعطف على الفقراء. وتعالج المرضى، وتناقش العلماء والمشايخ، وتشارك الناس أفراحهم فتغمر نفسها السعادة، وتقاسمهم تعاستهم فتذوب روحها أسى ولوعة .. وعلى مدى السنوات السبع التى عاشتها ظلت رسائلها تتوالى على زوجها وابنتها، تحكى فيها كل صغيرة بلا زيف أو مبالغة .. وقد بقيت هذه الرسائل وديعة

عند أسرتها في إنجلترا ، حتى أخرجها إلى النور أحد أحفادها فنشرها في مجلد أنيق في عام ١٩٦٦ بمناسبة مرور مائة عام على وفاتها، وقد ترجمها إلى العربية المؤرخ المعروف أحمد خاكي ، ونشرها في كتاب تحت عنوان (رسائل من مصر) .. وهو يرى في الرسائل وثيقة قيمة للتاريخ الاجتماعي تصف قطعة من حياة الريف المصري في أواسط القرن التاسع عشر .. بل يراها من بعض نواحيها وثيقة دينية وسياسية يجدر بالباحثين في التاريخ أن يعيروها دراسة دقيقة، لأن دراسة المجتمع نفسه وإحساسات أفراده وتصرفاته من ألزم ما يكون للمؤرخ .. وقد استطاعت رسائل (لوسي دف جوردون) أن تقدم لنا هذه المعلومات الدقيقة ، لأنها كانت تحكي الأحداث الصغيرة التي كانت تصادفها .. وكانت لوسي دائبة على التجوال فيما حولها من القرى ، والاستماع لما يلقيه عليها القوم من قصص فتكتبها إلى زوجها أو أمها أو ابنتها .. وباحث التاريخ يستطيع أن يجد أنه كان هناك تفاعل بين الحكومة المركزية في القاهرة وهذه القرى النائية في صعيد مصر فقد كان الأهلون متأثرين بسياسة الحكم في بداية عصر إسماعيل .. فالرسائل إذن وثيقة سياسية اجتماعية تعرض خبرات شخصية مباشرة، وهي من ناحية أخرى وثيقة دينية لأنها تتحدث عن أثر الإسلام في المصريين - ولكن وراء هذا الأثر

ما تأصل فى ثقافة المجتمع المصرى من أثر التاريخ الفرعونى ومعتقدات الفراعنة.

وعندما أدركت لوسى أن الموت يسرى فى جسدها، تقبلت حكم القضاء بروح راضية، وأبحرت بها السفينة شمالا من الأقصر حيث توقفت قبالة حلوان التف من حولها بحارة السفينة وخادمها الأمين (عمر أبو حلاوة) والذى ظل إلى جوارها طيلة السنين السبع، وكتبت آخر رسائلها إلى زوجها تقول فيها : لا تبتئس ولا ترسل إلى ممرضة، فأنا ألقى من العناية ما هو فى الإمكان، والريسان (رمضان) و (يوسف) قويان عطوفان، أما (عمر) فهو كما كان دائما. لقد بلغ بى الألم الجثمانى ما لا أود أن يشهده الآخرون .. بارك الله فيك يا أعز الأحباب .. كم هو مؤسف أنك لم تقم بما كنت قد عزمت عليه من قدومك إلى أعلى صفحة نهر النيل .. قبل لى كل أحبائى .. وتشارلى العزيزة .. إنى أشفق على عينيها .. أظن أننى لا استطيع أن أجيد الكتابة - فخطى ردئ - فأنا مجهدة مسهدة، فارقنى النوم وصدرى يتمزق من السعال .. اغفر لى أخطائى .. كم وددت لو أننى رأيت وجهك العزيز مرة أخرى .. لكنى لست أود ذلك الآن .. لست أريدك الآن هنا بأية حال من الأحوال ..

وفى اليوم التالى، كتبت صورة برقية إلى زوجها تنعى فيها نفسها، وتركت فراغا بين الكلمات يكتب فيه تاريخ الوفاة .. وانتابتها نوبة شديدة من السعال فاستسلمت لأمر الله .. وكانت آخر كلماتها «لتكن مشيئتك» وبعدها أسلمت الروح .

عصر الشهداء

كانت الكنيسة المصرية منذ نشأتها حصنا للوطنية ، رمزاً للصلابة والصمود في وجه السيطرة الأجنبية الدخيلة ، ومقاومة العقائد الوثنية الفاسدة .. وعلى امتداد عهود القهر الروماني، التي استطالت سبعة قرون إلا ربع قرن، كان المصريون يلوذون بكنيستهم كلما أوجعتهم ضربات الرومان ، ويجدون في رحابها طمأنينة الإيمان واستقلال الرأي والضمير ، ورفض الذل والمهانة، والتمرد على جبروت الحاكم مهما كانت فظاعة البطش والتنكيل.

في كنيسة الإسكندرية، امتزجت العقيدة الدينية بالحماسة الوطنية، فأكسبها ذلك قوة روحية ومادية، جعلت منها ندا مناوئا للإمبراطورية الرومانية، في وقت بلغت فيه هذه الدولة غاية القوة والاقتدار وآلت إلى ممتلكاتها دول ذات مجد عريق ومنها مصر .. وتحول أبناء العز القديم إلى أتباع عبيد

للأرض، يعملون ويكدحون من أجل مجد روما ، ورفاهية السادة الأشراف الذين جعلوا من الإمبراطور إلها يعبد وتقدم له القرابين .. ولفقوا من بقايا العقائد الوطنية الرجعية دينا فرض على شعوب الإمبراطورية أن يعتنقوه.

فى ذلك العصر الوثنى الكئيب ، كان المصريون ينكفئون على ذواتهم، فيجدون نفحات الإيمان تسرى فى أوصالهم، منذ عرفوا عقيدة التوحيدقبل قرون من ظهور نجم روما وبيزنطة .. فلما ظهرت النصرانية دينا إلهيا يدعو إلى عبادة الإله الواحد الصمد، ونبذ عبادة البشر، لاذ به المصريون واعتنقوه .. وأصبحت مصر مصدر قوة وإشعاع للدين الجيد .. منها تخرج قوافل التبشير ، وفى صحاريها الصامتة تقام صلوات وصوامع وبيع يذكر فيها اسم اللّه .. وظهرت الرهبانية احتجاجا عمليا على السلطة الوثنية التى ترغمهم على ما يكرهون .. وهج الرهبان إلى فجاج الصحراء، فرارا بدينهم من طغيان دولة لا يضمرون لها سوى البغض والاحتقار، ولا تضمر لهم سوى المهانة والإذلال.

عندئذ أدرك الأباطرة أن المسيحية هى الأفعى التى تهدد مجد الإمبراطورية .. وأن رأس الأفعى هى مصر .. ولذا كان نصيب مصر من العنت والاضطهاد متناسبا مع دورها الطليعى

فى زعزعة أركان الإمبراطورية، سواء فى مجال العقيدة الدينية، أو فى مجال السلطة الزمنية .. فانهالت مطارقهم على رأس الكنيسة، لما كانت تحمله من روح العناد وبث نزعة التمرد فى نفوس المصريين .. فلما جاء عام ٢٨٤ ميلادية، اعتلى عرش بيزنطة الإمبراطور دقلديانوس. فأقسم برأس آلهته الوثنية أن يؤدب المصريين أدبا يجعلهم عبرة لكل متمرد جسور . وجاء بنفسه إلى مصر شاهرًا سيفا ظل يعمله فى رقاب المسيحيين، حتى سالت دماؤهم أنهاراً .. وبر بالوعد والوعيد الذى قطعه على نفسه، بأن تغوص سنابك خيله فى بحر دمائهم . ولقد تحمل المصريون هذه المجزرة الرهيبة بما فطروا عليه من صبر على المكاره ، وثبات فى الشدة ، حتى إذا انجلت المحنة كان حريا بالأقباط أن يجعلوا من سنة ارتقاء هذه الإمبراطور المفترس عرش بيزنطة بداية للتقويم القبطى، وأن يجعلوا من دماء الشهداء التى أريقت بداية لحلقة جديدة من التاريخ المصرى المجيد، وهى الحلقة المعروفة بعصر الشهداء.

ولقد ذهب دقلديانوس .. وجاء من بعده أباطرة اعترفوا بالنصرانية بعد أن رفعوا عنها الأغلال .. ثم جاء من بعدهم أباطرة اعتنقوا النصرانية ، وجعلوا منها دينا رسميا للإمبراطورية .. وقامت فى بيزنطة كنيسة خلعت على نفسها

صفة القيادة والريادة لما سبقها من كنائس .. وكان المفترض أن يتوقف اضطهاد الاقباط بعد هذا التحول الكبير فى ديانة الدولة المتسلطة ، ولكن الاضطهاد لم يتوقف من جانب الرومان، ولم يتوقف السخط والعناد من جانب المصريين .. وكان سبب الصراع الجديد يرجع إلى الخلافات المذهبية التى نشأت بين الفرق المسيحية، حول طبيعة السيد المسيح .. لقد تغير سبب الاضطهاد، ولم يتغير نوع الاضطهاد الذى شقى به المصريون فى ظل دولة تزعم أنها تعتنق المسيحية .. كانت كنيسة بيزنطة الرسمية تستنكف أن يبقى لكنيسة الإسكندرية سلطانها الروحى والأدبى الذى صنعته عبر أجيال وأجيال من صمودها وثباتها فى وجه الطغيان .. وكانت الكنيسة المصرية تتمسك باستقلالها الدينى والوطنى، وتأبى أن تساوم على رأيها فى قضية تتعلق بالعقيدة لمجرد الإذعان والإيمان والخضوع لسلطان الكنيسة الإمبراطورية.

وحين اكتشف الأباطرة أن هذا الخلاف المذهبى هو غطاء يخفى ضغائن المصريين، تجاه الدولة الحاكمة، ضاعفوا من ضرباتهم لأتباع الكنيسة الوطنية وأبعدوهم عن الوظائف العامة، حتى يضيروهم فى أرزاقهم ، ويرغموهم على النزول

عن كبريائهم .. ولكن كل هذه الضغوط لم تفلح فى زحزحة المصريين فى عنادهم أو تغيير موقفهم الرافض للسيادة الرومانية على مقدراتهم الدينية والوطنية . وفى ذلك يقول الكاتب الكبير عباس محمود العقاد.

«إن اللازمة التى لا فكاك منها، تبرز على الأثر، كلما اجتمعت الأسباب اللاهوتية والأسباب القومية فى جانب، وهذه القوة المتجمعة من غيرة الدين وحماسة القومية هى التى اعتصم بها المصريون زمنا فى وجه الدولة الرومانية قبل إيمانها بالمسيحية، وبعد إيمانها بالمسيحية. لقد اضطهد المصريون من قبل من جانب الأباطرة والقياصرة الوثنيين والمتدينين، ولم يكن هذا الاضطهاد خلوا من شوائب السياسة وعوامل الثورة القومية، فلما وجدت للمصريين كنيسة قائمة .. كانت هى الدين والدولة فى وقت واحد ، أو كانت هى الزعامة التى تلتف بها الأمة وتثبت فيها كيانها ومشيئتها فى وجه القوة المفاجئة» .

حتى إذا أوشكت شمس الإمبراطورية على الغروب، كان الخلاص منها قد أصبح حلما يساور زعماء الكنيسة الوطنية، وساد الناس شعور واحد، وهو شعورهم بالغضب الإلهى على

هذه الدولة الظالمة وانتصار الجزاء العادل من الله .. فلما تقدم المسلمون لحرب الروم ، شاع فى المشرق كله أن هزيمتها حق، وأن غلبة المسلمين عليها عدل، وأن القضاء الإلهى ينفذ فى مستحقيه بما قدمت أيديهم من ظلم ومعصية.

الأرستقراطية الحديثة

إن ظاهرة المتمصرين، الذين أحبوا مصر وخدموها بصدق وإخلاص تستحق التسجيل .. وهي تؤكد أن الولاء لمصر ليس مجرد كلمات جوفاء تتردد في الأغاني والخطب والمقالات .. ولكنه إحساس مستقر في الضمائر والقلوب ويتجسد في الأعمال والتصرفات .. إن الفترة التي نؤرخ لها شهدت صراعا حادا بين جموع المصريين المتطلعين إلى العدل والحرية، وجحافل الأجانب الذين تكالبوا على مصر يمتصون دماءها ويسرقون أقواتها .. ومن خلال الصراع، ظهرت نماذج رائعة لرجال أفذاذ، ارتفعوا فوق العصبية، وانتصروا لمبادئ الحق والعدل، ووقفوا إلى جانب المثل الإنسانية العليا، رغم حداثة عهدهم بالتراب المصري .. وفي هذا الصدد نذكر محمود سامي البارودي، وأديب إسحق، ويعقوب صنوع، وقاسم أمين، والزعيم محمد فريد، والشاعر

أحمد شوقى، وأولاد تيمور .. وكلهم أعطى مصر من الإخلاص بقدر ما أعطته من نعمة الوجود ، وعلى رأسهم جميعا يتربع شريف باشا.

إلا أن «الحب» وحده لا يكفى، لتفسير ظاهرة الولاء الوطنى عند هؤلاء المتمصرين الأوفياء . فالولاء الذى يفتقر إلى الوعى، لا يثمر غير نعرات عاطفية جوفاء .. ولابد أن هناك دوافع أخرى أعمق ، جعلت هؤلاء ينشقون على الأرستقراطية التركية التى أفرزتهم، وينحازون إلى المعسكر المصرى ، ويشكلون مع الأرستقراطية المصرية الحديثة «حلفاء» غايته هو النظام الحاكم، ليتفهم مغزى الإرهاصات التى كانت تتفاعل فى أحشاء المجتمع المصرى، ويبشر بولادة قوى سياسية مصرية جديدة.

لقد رأت هذه الأرستقراطية المستنيرة، أن تغييرا جذريا قد حدث فى البنية الاجتماعية، بسبب تطور نظام الملكية الزراعية .. وكان من نتيجته ظهور طبقة من كبار الملاك المصريين .. وكان من الطبيعى أن تبحث هذه الطبقة عن دور لها على المسرح السياسى، على حساب الأستقراطية التركية المتعجرفة التى يساندها الخديو إسماعيل، واشتد الصراع بين الطرفين، وكان على الفئات المتمصرة بزعامة

شريف باشا أن تختار .. فاختارت الجانب المصرى ، ليس لأنه الأقوى، ولكن لأنه الأبقى، ولأنه الأكثر اتساقا مع حركة التاريخ، ولأنه الأكثر اتفاقا مع المبادئ والأفكار العصرية التى تشبعت بها ..

ومن المؤكد أن العوامل الثقافية، لعبت دوراً فى تحريك مشاعر هذه الفئة فكلهم اتصل بأوروبا - وفرنسا بالذات - وعاصر التطورات الدرامية التى انتهت إلى انتصار الليبرالية وإندحار الحكم المطلق والنظام الإقطاعى .. وكانوا على ثقة بأن سنة التطور لابد أن تسرى على مصر، وأن رياح التغيير آتية ، وأن عليهم أن يتحركوا حتى يتم التغيير سلميا ودون إراقة دماء، أو حدوث صدع يهدد كيان الوطن .. وكانت غاية آمالهم أن يتخلى إسماعيل عن نزعته الاستبدادية، ويعمل على توسيع قاعدة الشورى، لتستوعب التطورات الاجتماعية الجديدة .. وكانوا يحلمون بالدستور وبالمجلس النيابى ! وبالوزارة المسئولة أمام البرلمان، وبالحاكم الذى يملك ولا يحكم .. وكانوا يحلمون بإلغاء السخرة والرق .. وسيادة المبادئ الإنسانية، واحترام كرامة الفرد.. ولم يكونوا فى ذلك الوقت مسرفين فى أحلامهم .. ألم يقل إسماعيل إن مصر أصبحت قطعة من أوربا ؟! ولكن وجه التمايز بينهم وبين

إسماعيل، أن الأخير لم يقتبس من معالم الحضارة الأوروبية سوى مظاهرها المادية البراقة .. دار الأوبرا، وأفراح الأنجال، وحفلات الليل المخملية، وتشييد القصور الفاخرة على غرار قصور فرساى التى احترقت في أتون الثورة .. أما جوهر الحضارة المتمثل فى احترام إرادة الشعب، والامتثال لمبدأ سيادة الأمة .. فإن إسماعيل لم يكن على استعداد لاقتباسه أو الاقتراب منه .

وهذا هو جوهر الخلاف بين راعى الأرستقراطية التركية العتيقة - إسماعيل - الذى أدار ظهره لحركة التاريخ، فاحترق، وقائد الأرستقراطية المصرية المستنيرة - شريف باشا - الذى قاد أول حركة دستورية نيابية فى مصر، ليجنب البلاد مغبة ثورة دموية تأكل الأخضر واليابس، فنجح حينا، وفشل أحيانا، حتى انتهى الصراع بقيام الثورة العرابية .. ثم وقوع الاحتلال الإنجليزى.

يهوذا المصرى

فور نشوب الحرب العالمية الأولى، بسطت بريطانيا العظمى حمايتها على مصر ففقدت شخصيتها المعنوية، وباتت تحكم عن طريق نائب «جلالته» المقيم فى قصر الدوبارة.. وألغيت وزارة الخارجية، فلم يعد لمصر وجود دولى.. وبذلك حققت بريطانيا هدفها النهائى من احتلال مصر منذ ١٨٨٢، وهو تبعية مصر للاحتلال تبعية صريحة، بعد أن كانت من وراء حجاب الخديوى عباس حلمى الثانى، ووضع عمه حسين كامل على الأريكة السلطانية، لينفذ ما يؤمر به، ويفتح البلاد على مصراعيها، لتكون فى خدمة الجيوش المحاربة.

وكان هذا الحدث الجسيم بمثابة طعنة فى صدر الحركة الوطنية اشتد ساعدها، بعد ظهور مصطفى كامل ومدرسته.. وشعر المصريون بالمهانة والعار وخيم اليأس على النفوس.. وبدا هدف الاستقلال وكأنه سراب.. وتبددت الآمال فى

الحرية.. وشدد الاحتلال قبضته الحديدية على البلاد. فأعلنت الأحكام العرفية لأول مرة فى تاريخ مصر الحديث، وفرض الرقابة على الصحف، وطورد الأحرار والوطنيون، فهم بين معتقل أو سجين أو شريد فى الآفاق، وإنحطت الأخلاق، وشاع النفاق، وهرول الكبراء إلى قصر الدوبارة يتغزلون فى مناقب نائب جلالته.. وتنافس كبار شعراء مصر فى تدبيج القصائد التى تشيد بعظمة الأمة الإنجليزية وكرمها وعطفها الزائد على أرض الكنانة.

فى هذا الجو المفعم باليأس والانحطاط، لم يعد هناك من بصيص أمل سوى شباب مصر الجسور الذى لم يتلوث ولم يتدنس ولم تجرفه موجة الفساد.. ولم تكن هناك أحزاب تستطيع أن تقود حركة النضال وتنظيم الصفوف، ولم يعد أمام الشباب إلا أن يتصرفوا بوحى من ضمائرهم اليقظة وارادتهم الحرة. انصب سخطهم على رأس السلطان الذليل.. وعبثا حاول السلطان حسين أن يتودد إلى قلوب المصريين ويدخل فى روعهم أنه ما قبل العرش فى ظل الحماية إلا لينقذ مصر من خطر أكبر كانت تدبره إنجلترا، وهو ضم مصر إلى التاج البريطانى، وهى مقولة روجت لها أبواق السلطان لتبرير فعلته.. ولم يقتنع الشباب بهذه الأسطوانة المشروخة، كما لم ينخدعوا بالقصص الملفقة التى نسجها المنافقون لتحسين

صورة السلطان فى عيون الشعب، فهو تارة أبو الفلاح، وتارة أبو التعليم، وحينا راعى الشباب.. إلخ.

وفى يوم الخميس ٨ أبريل ١٩١٥، كان موكب السلطان يعبر شارع حسن الأكبر فى طريقه إلى قصر عابدين، فأقترب منه شاب يلوح بباقة ورد تنطوى على مسدس، وأطلق الشاب رصاصة على السلطان، ولكنها أخطأته.. ،قبضوا على الشاب، وتبين أنه تاجر خردوات من المنصورة اسمه محمد خليل.. وتبين أنه كان يخفى فى جيوبه حبوباً سامة ليبتلعها بعد قتل السلطان.. ولكنه امتنع عن تناولها لأنه رأى فى الأنتحار عاراً لا يليق بالأبطال.

اوقدموا الفدائى الجرئ إلى محكمة عسكرية بريطانية، فحكمت عليه بالإعدام شنقا، ونفذوا فيه الحكم دون أن نعرف.. هل كان محمد خليل عضوا فى منظمة فدائية؟ إن أحدا من الذين أرخوا للحركة الفدائية فى مصر، لم يقدم دليلا يؤكد صحة هذا الافتراض.. ويبقى القول بأن الأعمال الفدائية التى سبقت ثورة ١٩١٩ كانت تلقائية نابعة من إرادة أفرادها فحسب.

لقد أفلت السلطان من الموت، ولكن جذوة الانتقام لم تخمد.. فبعد شهرين فقط، كان السلطان بالأسكندرية فى طريقه لأداء صلاة الجمعة، فألقيت عليه قنبلة من نافذة أحد

البيوت، ولكن القنبلة لم تنفجر.. وهرول رجال البوليس نحو البيت، فاكتشفوا أن الشاب الذى ألقى القنبلة استطاع أن يقفز إلى سطوح بعض البيوت المجاورة ثم هبط من السلم فوجد بعض النسوة يثرثرن على باب البيت فألقى عليهن السلام، ثم مضى فى طريقه فى ثقة وهدوء.

وبعد عدة شهور من البحث والتقصى، قبضت السلطات على تسعة شبان من الذين سوف تتألق أسماؤهم فى حوادث الإنجليز أثناء ١٩١٩، ولكن النيابة لم تقدم للمحاكمة سوى اثنين هما: محمد نجيب الهلباوى، ومحمد شمس الدين، فحكمت عليهما المحكمة العسكرية بالإعدام.. ولكن السلطان التمس من الإنجليز تخفيف الحكم فاستبدلت به الأشغال الشاقة المؤبد.

* * *

من يصدق أن أحد هذين الشابين الجسورين سوف ينتقل من معسكر الوطنية والفداء إلى معسكر الخيانة والغدر، فيعمل مرشداً وعميلا لسلطات الاحتلال، ثم يبيع زملاء الجهاد بأبخس الأثمان حتى يسلمهم إلى حبال المشانق.. فيكون مثله مثل «يهوذا» التلميذ الخائن الذى باع المسيح لأعدائه؟!!

ثمن الخيانة

كان أول عمل قامت به وزارة الشعب الأولى، برئاسة سعد زغلول، هو الإفراج عن الفدائيين المحكوم عليهم في قضايا الاغتيالات السياسية، ومن بينهم محمد نجيب الهلباوى، الذى ألقى القنبلة على السلطان حسين بالأسكندرية في يوليو ١٩١٥ .. وفي اليوم التالى لإطلاق سراحه، ذهب محمد نجيب الهلباوى طائعا مختاراً إلى مبنى المخابرات البريطانية، ليضع نفسه في خدمة الإحتلال، ويسخر خبرته السابقة ومعلوماته الغزيرة عن الأعمال الفدائية لتكون تحت أمر سلطات الاحتلال. وكان الإنجليز في شوق شديد لواحد من هذا الطراز، ويكشف خبايا العمليات الجريئة التى قام بها الجهاز السرى التابع لقيادة ثورة ١٩١٩ ، وذهب ضحيتها العديد من الإنجليز وأعوانهم من الوزراء المصريين الذين قبلوا العمل مع الاحتلال في ظل الحماية البريطانية.

وكان الإنجليز، في أعقاب كل حادث، يرصدون مكافآت مالية سخية لأى شخص يدلى بمعلومات تؤدى إلى كشف الستار عن هذا الجهاز الغامض، ولكن مصرياً واحداً لم يتقدم.. وكان هناك ملايين من المصريين الفقراء فى حاجة إلى ثمن رغيف الخبز.. ولكن لم يكن هناك مصرى واحد، طاوعته نفسه لخيانة بلده، رغم أن حوادث الاغتيال كانت تجرى فى الشوارع والميادين فى وضح النهار، ويراها العشرات والمئات من أبناء البلد.. إلى أن ظهر هذا الشيطان المدعو محمد نجيب الهلباوى، ليصبح عميلاً فى جهاز المخابرات البريطانية تحت اسم «مستر H».. ويتحول من بطل يحمل روحه على كفه، إلى خائن مهمته ملاحقة إخوانه الفدائيين والاختلاط بهم ومعرفة أسرارهم ونقلها إلى العدو!

لقد رحب الإنجليز بالهلباوى، واعتبروه مكسبا كبيرا وتركوه يملى شروطه للتعاون معهم، وهى شروط رخيصة الثمن، لا تزيد على راتب شهرى قدره أربعون جنيها بخلاف المسكن والمأكل والمشرب.. فما هى الدوافع القوية التى يمكن أن تجعل من البطل عميلا، ومن الفدائى خائنا؟ وما الذى قلب كيان هذا الشاب الذى وصفه سعد زغلول، عندما رآه بعد حادث القنبلة، بأنه يشبه فى هيئته وحركاته مصطفى كامل؟

إن محمد نجيب الهلباوى، يعترف فى مذكراته المخطوطة التى أودعها عند الأستاذ مصطفى أمين، بأنه خرج من السجن فوجد بعض زملائه تقدموا عليه فى الوظيفة وأنه يطمع فى وظيفة محترمة، ولكن سعد زغلول عرض عليه وظيفة مرتبها ١٥ جنيها، بينما عين أحد الصحفيين فى وظيفة بمرتب ٣٥ جنيها.. فهل يمكن أن تكون عشرون جنيها ـ فرق مرتب ـ مبرراً للخيانة؟! وهل نقبل من الفدائى الذى كان قاب قوسين أو أدنى من حبل المشنقة، أن يبيع روحه للعدو بسبب عشرين جنيها؟! إننا لو قبلنا هذا المنطق العليل لكان حتما أن نقبل أعذار الجواسيس والخونة.. وكلهم يعلق دوافع خيانته على شماعة الجحود والظلم الذى يعانيه من ابناء وطنه وهو منطق الخونة الذين لا يخلوا منهم مجتمع فى كل زمان ومكان.

إن واحداً من ضحايا الهلباوى، يضع أيدينا على تاريخ المرحلة الانقلابية فى حياة الشاب.. ويقول الجسور عبدالفتاح عنايت، سليل البيت الفدائى العريق، وأحد الذين ساقهم الهلباوى إلى حبل المشنقة فى قضية السردار والوحيد الذى أفلت من الأعدام لصغر سنه، يقول عبدالفتاح عنايت: «إن الهلباوى انقلب من وطنى فدائى إلى عميل بريطانى، لأنه عندما سجن سنة ١٩١٥، لم يسأل عنه أحد، ولو كان فى ذلك

الوقت يوجد جهاز يهتم بالمسجونين لما انقلب هذا الرجل! لقد خرج من السجن مصرا على الاشتغال مع المخابرات البريطانية، حاقدا على ثورة ١٩، وحاقدا على زعيمها وعلى جهازه السرى وحاقدا على المصريين جميعا!!

وكلام عبدالفتاح عنايت، يدل على أن الهلباوى كان عاقداً النية على الخيانة قبل أن يخرج إلى عالم الحرية.. فالقضية لم تكن إذن قضية وظيفة ذات مرتب ضئيل - كما يزعم - ولكنها الرغبة المتأصلة فى التدمير وهدم المعبد على رءوس أبناء وطنه جميعا والعذر الذى يسوقه عنايت عن إهمال شئون المسجونين السياسيين، هو كلام ناس شرفاء طيبين، يتمنون الكمال فى مسيرة الثورات، ولكنه لا يمكن بحال أن يكون مبرراً للخيانة والغدر.. فعبدالفتاح عنايت نفسه، فقد أخاه الأكبر (محموداً) حين مات فى السجن سنة ١٩١٧، ومع ذلك لم يتحول أولاد عنايت إلى خونة حاقدين، بل واصلوا مسيرة أخيهم فى مقاومة الاحتلال بالحديد والنار.. أما الهلباوى فقد سار فى طريق الغواية حتى وقع حادث السردار، فتكشفت مواهبه الشريرة عن شيطان رجيم.

زملاء الكفاح القديم

فى انساعة الثانية من بعد ظهر الأربعاء ١٩ نوفمبر ١٩٢٤، غادر السير (لى ستاك)، سردار الجيش المصرى وحاكم السودان، مقر وزارة الحربية بلاظوغلى عائداً إلى بيته بالزمالك (نادى الضباط حاليا).. وما إن اقتربت سيارته من شارع قصر العينى، حتى انهال عليه وابل من الرصاص، من سيارة تاكسى كانت تلاحقه.. فخر صريعا.

وفى الساعة الخامسة من مساء نفس اليوم، كان العميل محمد نجيب الهلباوى على موعد مسبق مع ضابط الشرطة المصرى، اليوزباشى سليم زكى، الذى كان من أكبر أعوان السلطات البريطانية.. وبرغم حالة الهلع التى أصابت الإنجليز ومعهم جهاز الأمن المصرى من جراء الحادث؛ فقد كانت تعليمات اللواء توماس راسل باشا، حكمدار بوليس القاهرة، إلى اليوزباشى سليم زكى بأن يذهب للقاء الهلباوى فى المكان

المحدد بضاحية مصر الجديدة، ليعرف منه أسباب فشله في التنبؤ بالحادث قبل وقوعه.. وعسى أن يحصل منه على معلومات، تفيد في كشف القتلة.. ولكن سليم زكي فوجئ بأن عميله أخيب مما يظن؛ فلم يكن يعلم بعد بخبر مصرع السردار.. مما وضع العميل في موقف حرج، وعرضه لحملة من التقريع والطعن في كفاءته.

وبالرغم من سقوط الهلباوي، في أول امتحان يتعرض له منذ انضمامه إلى المخابرات البريطانية، قبل تسعة شهور- فإن الإنجليز لم يفقدوا الأمل في قدرته على القيام بعمل ما، يثبت من خلاله إخلاصه في خدمتهم، وليزيل الشكوك التي تعمد سليم زكي أن يبثها في نفسه، ليدفعه إلى مزيد من الولاء والتفاني في خدمة سادته الإنجليز.

وبدأ الهلباوي الخطوة الأولى في الطريق الصعب.. طريق الخيانة والغدر.. وانطلق لتوه إلى مكتب شفيق منصور المحامي.. فقد كان واثقاً بأن تدبير حادث مصرع السردار ، لا يمكن أن يتم خارج دائرة شفيق منصور، ومجموعته الفدائية التي كانت تضم أعتى العناصر جرأة وجسارة، من أمثال : محمود إسماعيل ضابط خفر السواحل السابق.. والشقيقين عبدالفتاح عنايت الطالب بالحقوق، وعبدالحميد الطالب

بالمعلمين العليا.. ومحمود راشد مساعد المهندس بمصلحة التنظيم.. وإبراهيم موسى زعيم عمال العنابر.. ومحمد فهمى على زعيم عمال الترسانة.. وهى المجموعة التى قامت باغتيال الإنجليز وأعوانهم في أعقاب ثورة ١٩١٩.. كان نجيب الهلباوى يعرف كل هؤلاء الرجال من خلال تردده الدائم على مكتب شفيق منصور.. وكان هذا المكتب أشبه بخلية نحل يأوى إليها الشباب المتحمس.. يثرثرون فى السياسة ويخططون لقتل الإنجليز.. وكان الهلباوى أعلى الجميع صوتا.. وأشدهم حماسة وتطرفا.. كان لا يكف عن ابداء سخطه على الإنجليز وضرورة استئناف عمليات اغتيالهم.. وكان شفيق منصور يعمل على تهدئة هذا الثائر الغيور (!!)، وأفهمه أن كل شئ بأوانه. فيزداد ثورة وهياجا.. وكثيراً ما كان شفيق يصحبه إلى بيته، ليشاركه الطعام ، فقد كان دائم التبرم والتظاهر بالفقر، حتى أن محمود إسماعيل صحبه إلى ترزيه الخاص، وضمنه فى صنع بدلة بالتقسيط ودفع له القسط الأول من ثمنها، وقدره خمسون قرشا.. وكان هذا مسلك بقية الشباب الأبرار الذين تقبلوا وجود الهلباوى بينهم لسابقته فى الجهاد.. دون أن يتصوروا أنهم بإزاء عميل إنجليزى، مهمته كشف أسرارهم وسوقهم كالذبائح إلى ساحات الإعدام.

فلما وقع حادث السردار. من وراء ظهر الهلباوى أو (المستر (H) - أدرك أن كل التمثيليات التى أداها، وكل الحماسة الجوفاء التى تظاهر بها، لم تفلح فى كسب ثقة هؤلاء الأبطال الذين كانوا يقدسون سرية العمل الفدائى، ولم يكونوا من السذاجة ليكشفوا سرهم لأحد، حتى لو كان مناضلاًسابقاً.. وكان الهلباوى يعرف الظروف النفسية لهؤلاء الصناديد، وأنهم من الصلابة بحيث يصعب اختراق حاجز الصمت الذى فرضوه على عمليتهم .. فكان عليه أن يبحث عن وسيلة للإيقاع بهم، تختلف عن الوسائل التقليدية التى كان البوليس السياسى يلجأ إليها وتنتهى إلى إخلاء سبيلهم لعدم كفاية الأدلة.. وكانت القاعدة التى بنى عليها خطته هى «عندما تلقى القبض على أشخاص، فيجب أن يكون هؤلاء الأشخاص المذنبين الحقيقيين، أما إذا ألقيت القبض على أشخاص (مشكوك فيهم) . فإن المذنبين الحقيقيين سيعرفون أنك غير واثق بالأمر».

وبناء على هذه القاعدة، عكف الهلباوى على رسم خطة جهنمية متقنة الصنع دقيقة التفاصيل، تشبه سيناريو لفيلم أمريكى من أفلام الإثارة، وهى مسجلة بالتفصيل ضمن الوثائق البريطانية، وقد ترجمها الأستاذ محسن محمد، ونشرها الدكتور حسين مؤنس فى كتابه (دراسات فى ثورة

١٩١٩)، كما عرض الأستاذ مصطفى أمين بعض محتوياتها فى (الكتاب الممنوع ـ الجزء الثانى) ضمن اعترافات محمد نجيب الهلباوى التى أسماها (إماطة اللثام عن أخطر الأسرار).

ولما فرغ الهلباوى من وضع خطته، دعا إلى اجتماع مغلق فى بيت أنجرام بك مساعد الحكمدار بالجزيرة، حضره إسماعيل صدقى باشا وزير الداخلية، والنائب العام، وراسل باشا حكمدار القاهرة، ومساعده أنجرام، واليوزباشى سليم زكى.. يقول الهلباوى: انعقدت الجلسة، وبعد مناقشة طويلة، سلمتهم خطة القبض على الجناة مكتوبة بيدى، وطلبت منهم تنفيذها بدقة سير عقرب الساعة وحذرتهم مغبة التأخير أو التقديم؛ فقد تؤدى غلطة بسيطة إلى الفشل الذى سوف يعقبه المذلة لجميع سكان وادى النيل.. قال راسل باشا: وإن لم تنجح الخطة، فما مصيرك يا مستر H؟ قلت: سوف أقتل نفسى على الطريقة اليابانية، لأنى لا أطيق صبرا على ذل بلادى ومليكى

وتم تنفيذ خطة مستر H، بالدقة التى طلبها، وانتهى بالقبض على الرجال الثمانية الذين خططوا ونفذوا الحادث، ونفذ حكم الإعدام فى سبعة منهم، وخفف عن الثامن، وقبض الهلباوى المكافأة التى رصدتها الحكومة له وقدرها عشرة آلاف جنيه، ولينعم بالحياة التعيسة على رقاب زملاء الكفاح القديم.

عندما ينقلب السحر على الساحر

كان لغز مصرع السردار - ولايزال - محصورا فى معرفه الجهة التى حرضت عليه.. وفى أعقاب الحادث، كانت أصابع الاتهام وهى أصابع بريطانية - تسعى إلى تعليق التهمة فى عنق الوفد، ووضع رقبة سعد زغلول فى حبل المشنقة، باعتباره الأب الروحى للشباب الثورى الذى ارتكب الحادث، وارتكب من قبله عشرات الحوادث المماثلة.

وفى مقابل فكرة اتهام الوفد بالتحريض على قتل السردار، ظهرت فكرة أخرى تحاول أن تتهم الإنجليز أنفسهم بتدبير الحادث، كذريعة للتخلص من وزارة سعد زغلول، التى كانت تمثل التشدد الوطنى إزاء الأطماع البريطانية.. وصاحب فكرة اتهام الإنجليز هو الأستاذ مصطفى أمين، الذى جمع عددا من الأسانيد استخلصها من بعض الوقائع، التى تصادف وقوعها قبيل الحادث.. غير أن مصطفى أمين لم

يقف بفكرته عند حد اتهام الانجليز ، بل انتقل منها إلى اتهام الملك فؤاد بتدبير الحادث عن طريق رجل القصر حسن نشأت، الذى حرض صديقه محمود إسماعيل على قتل السردار.

ولكن المناقشة المنطقية للأسانيد التى قدمها مصطفى أمين لا تلبث أن تكشف عن صعوبة قبولها. فهو قد بنى فكرته على أساس نظرية «ابحث عن المستفيد من الجريمة تصل إلى الفاعل». ولكن.. إذا كان من الصحيح أن الإنجليز والقصر استغلا حادث السردار إلى أقصى مدى لتنفيذ مآربهم، إلا أن الاستثمار فى حد ذاته لا يقف دليلا ماديا على أن المستفيد هو المحرض، ومن ثم يسقط اتهام الإنجليز والقصر بتدبير الحادث ولا يبقى مطروحا للمناقشة سوى اتهام الوفد.

وأصحاب هذا الاتهام ، يستندون إلى الاعترافات المذهلة إلى كتبها شفيق منصور قبل إعدامه، وكشف فيها النقاب عن وجود مجلس أعلى للاغتيالات ، كان تابعا لقيادة ثورة ١٩١٩ ، ويتكون من زعماء شباب الوفد المقربين من سعد، مثل: الدكتور أحمد ماهر، ومحمود فهمى النقراشى، وحسن كامل الشيشينى، وشفيق منصور، وغيرهم.. أما عمليات الاغتيال، فكان يقوم بها جهاز تنفيذى، يتلقى أوامره من المجلس الأعلى، عن طريق ضابط اتصال هو محمود

إسماعيل.. وكان بعض أفراد جهاز التنفيذ: أولاد عنايت ، ومحمود راشد، ومحمد فهمي علي، هم الذين قاموا باغتيال السردار.

ومن الثابت تاريخيا أن هذا الجيش السري من الشباب الثوري هو الذي تكفل بكل عمليات الاغتيال للعناصر البريطانية والموالية للاحتلال أثناء الثورة.. ومن الثابت أيضا أن عمليات الاغتيال توقفت بعد انتقال الحركة الوطنية من مرحلة الصدام المسلح إلى مرحلة الكفاح الدستوري. وهي المرحلة التي بدأت بصدور تصريح ٢٨ فبراير ١٩٢٢ ، وإعلان دستور ١٩٢٣ ، وإجراء أول انتخابات نيابية وتشكيل وزارة سعد زغلول في ٢٨ يناير ١٩٢٤ .. فإذا كانت قيادة الوفد قد شجعت أو باركت أعمال العنف في مرحلة الصراع المسلح مع الاحتلال، فهل كان من المنطقي أن يستمر أسلوب العنف والاغتيال إلى ما لانهاية؟! ولكن إذا كانت قيادات الوفد قد رأت أن العنف قد استنفد أغراضه .. فهل كان من الممكن إقناع الشباب الثوري بهذا المنطق والتخلي عن عمليات الاغتيال؟!..

هنا.. تتكشف لنا أبعاد الفصام، الذي وقع بين قيادة الوفد وجهازها السري.. وهذا الفصام هو المسئول الحقيقي عن اغتيال السردار وتدبير الحادث من وراء ظهر الوفد، وإرغام

قيادته على التخلى عن أسلوب التفاوض (خاصة بعد فشل محادثات سعد ـ ماكدونالد)، والعودة إلى أسلوب العنف.. ذلك أن المنظمات السرية عند بدء تكوينها تكون أداة طيعة في يد قيادتها، ولكنها سرعان ما تستمرئ العنف ولا ترى سبيلا غيره لتحقيق الهدف.. عندئذ ينقلب السحر على الساحر، وتتحول التنظيمات السرية إلى وحش كاسر يصعب ترويضه أو السيطرة عليه.. بل إنها تتمرد على قيادتها، وتتخذ قرارها بطريقة فردية دون احترام لرأى القيادة السياسية.

هذه حقيقة تؤكدها وقائع التاريخ السياسى للجماعات التى لجأت إلى تشكيل منظمات سرية كوسيلة ضرورية لتحقيق أهدافها فى مرحلة زمنية معينة، ولكن سرعان ما يحدث انفصام بين الجماعة وتنظيمها السرى في مرحلة لاحقة.. وتلك هى أخطر عواقب المنظمات السرية. فهى سلاح ذو حدين: أحدهما يقتل الخصم.. والثانى يقتل صاحبه.. وهذا ما حدث فى قضية السردار. فقد تبين من وقائع التحقيق أن الفكرة نبتت فى ذهن بعض أعضاء الجهاز التنفيذى للاغتيالات . الذين عز عليهم أن يتحول سعد زغلول من زعيم ثورة إلى رئيس وزراء فى ظل استقلال منقوص يتمثل فى التحفظات الأربعة التى نص عليها تصريح ٢٨ فبراير..

وعجزوا عن إدراك الحقيقة التى تقول إن الكفاح السياسى، كفيل باستكمال هذا النقص لأنهم لم يتمرسوا على العمل السياسى ، ولم يعرفوا غير لغة الرصاص والديناميت..

ومن هنا.. انفردوا باتخاذ قرارهم.

سعد أو الثورة

كان حادث اغتيال السردار نكبة على مصر بالقياس إلى النتائج الخطيرة التى نجمت عنه، وهى نتائج لا تتناسب إطلاقا مع حجم الحادث، أيا كانت شخصية القتيل.. ومن المؤكد أن هذه النتائج لم تخطر على بال الذين خططوا له ونفذوه.. فقد ظنوه واحدا فى سلسلة العمليات الفدائية التى كانت تشكل ضغطا على الإنجليز، وتدفعهم إلى مزيد من التنازلات لمصلحة القضية الوطنية.. ولكن هؤلاء المخططين نسوا الفارق الزمنى، والتغيرات التى طرأت على بنية العمل السياسى منذ صدور تصريح ٢٨ فبراير وإعلان دستور ١٩٢٣ وما ترتب عليه من إجراء انتخابات عامة دفعت بالوفد من معسكر الثورة إلى مقاعد الحكم.. لقد كانت حوادث الاغتيال السابقة تجرى والوفد فى معسكر الثورة.. أما حادث السردار فقد تم والوفد فى سدة المسئولية.. ومن ثم، كان على الوفد أن يدفع ثمن مصرع

السردار. وثمن كل الحوادث التى سبقته - وهو خارج الحكم - والتى بلغت فى مجملها خمسين حادثا، ذهب ضحيتها العديد من الموظفين الإنجليز، وبعض كبار الوزراء المصريين الذين قبلوا التعاون مع الاحتلال فى ظل الحماية.

وفى مثل هذه الأحداث الجسام، فإن نائجها لا تتم وفقا لحسابات مرتكبيها ولكنها تجرى حسب قدرة الطرف الآخر على استغلالها للحصول على مغانم لا صلة لها بالحادث نفسه.. وهذا هو ما حدث بالضبط. فقد وجدها الاستعمارى الشرس - لورد أللنبى - فرصة ذهبية ليشن هجمة انتقامية بربرية هدفها إهانة المصريين والحط من كرامتهم، وجرح كبريائهم التى بلغت ذراها إبان ثورة ١٩١٩، والإطاحة بزعيمهم سعد زغلول الذى قال إنه يحكم باسم أصحاب الجلاليب الزرقاء.. وارتكب أللنبى فى سبيل ذلك سلسلة من الأعمال الشرسة دون استئذان رؤسائه فى وزارة الخارجية البريطانية، مثل: طرد الجيش المصرى من السودان، وتوسيع رقعة المساحة المزروعة قطنا فى السودان على حساب الإنتاج المصرى، واحتلال جمرك الإسكندرية، وفرض غرامة قدرها نصف مليون جنيه بأسعار ذلك الزمان.. إلخ.

وليس من شك، فى أن الإطاحة بحكومة الشعب الأولى، لقيت ترحيبا وقبولا من رأس الأتوقراطية ـ الملك فؤاد ـ الذى سمع بأذنيه هدير الجماهير عبر نوافذ قصر عابدين ، وهى تهتف «سعد أو الثورة» قبل أسبوع واحد من مصرع السردار.. ووجدها الملك فرصة للتخلص من هذا الفلاح الثائر العنيد، الذى يصعب ترويضه ، ولم تفلح مباهج السلطة فى التخفيف من نزعته المتشددة وتمسكه بحقوق الشعب التى كفلها الدستور، بعد أن اصطبغت بلون الدم أثناء حوادث الثورة.

وترك سعد الوزارة بعد تسعة شهور فقط من التجربة الليبرالية التى تمخضت عن دستور ١٩٢٣ .. وكانت تلك أفدح الخسائر السياسية التى نجمت عن مصرع السردار، لقد جاءت وزارة «إنقاذ ما يمكن إنقاذه» برياسة أحمد زيور، لتلبى كل المطالب التى فرضها الإنجليز ـ وزيادة ـ وأصبح إقصاء الوفد عن الحكم هدفا ثابتا فى لائحة القصر الملكى ودار المندوب السامى.. وفى الانتخابات العامة التى أجريت عام ١٩٢٦، وحصل فيها الوفد على أغلبية ساحقة تخوله الحكم، ولاحت بوادر عودة سعد إلى رياسة الوزارة، فى هذه اللحظة تحركت البوارج الإنجليزية نحو الإسكندرية لتجعل من عودة سعد أمرا مستحيلا.. ودخلت مصر فى دوامة الانقلابات الدستورية التى

أسلمت زمام الأمور إلى حكومات مستبدة لاتستند إلى تأييد الشعب.، وإنما تستمد وجودها من قصر عابدين أو قصر الدوبارة.

والثابت تاريخيا، أن سعد زغلول كان يعتبر حادث مصرع السردار طعنة فى ظهر الوفد.. وأثبتت الأحداث التالية صدق هذا الرأى..

عاقر رغم أنفها

كانت باحثة البادية (ملك حفنى ناصف)، أشهر فتاة مصرية فى العقد الأول من هذا القرن، ودوّى اسمها فى أنحاء الشرق من خلال المقالات التى كانت تكتبها على صفحات (الجريدة) تحت عنوان (نسائيات)، وتعبر فيها عن تطلعات المرأة الشرقية إلى حياة كريمة فى إطار التعاليم الدينية والمبادئ السامية التى تتمشى وحاجة المجتمع وتطوره ورقيه.. فكانت تدعو إلى مجاراة العصر بقدر ما تسمح به الحاجة والاقتباس من الحضارة الغربية بقدر ما يلائم ظروف البلاد وينفع الحياة العائلية والاجتماعية ولا ينافى الروح القومية وروح الاستقلال الوطنى.

ولم يكن جهاد باحثة البادية مقصورا على الكتابة فى الصحف، وإنما كانت تخطب فى المجتمعات والمنتديات..

فكانت أول فتاة مصرية - بل شرقية - أنبرت تكتب وتخطب وتنظم الشعر دفاعا عن قضايا بنات جنسها.. ورغم أن ملك ظهرت في وقت ذاعت فيه دعوة قاسم أمين التحررية، إلا أن أفكار (باحثة البادية) كانت أشد تأثيراً في عواطف الناس من أفكار (محرر المرأة)، الذى كان يحارب قضية غيره.. ويطرح آراء جريئة متطرفة تصدم مشاعر مجتمع محافظ.. أما ملك فكانت تغمس قلمها في قلب الأنثى، وتعبر بصدق عن محنة بنات عصرها، وهن يتعرضن للهوان بسبب التقاليد الظالمة، والسلوكيات المجحفة.. وكانت صرخاتها الأدبية أشبه بزفرات حزينة توقظ الضمائر.. وتحرك المشاعر الرقيقة.. وتثير الدموع والعبرات. ولم يكن أحد من جماهير قرائها - باستثناء المقربين - يعرف أنها تعبر عن مأساتها الشخصية، وتصور نكبتها الخاصة، وترسم خفايا محنتها الفاجعة.

كانت ملك كبرى سبعة أبناء، أنجبهم الأديب الشاعر المرموق حفني بك ناصف، فنشأت في بيت علم وأدب، وحفظت من عيون الشعر وقطوف الأدب ما لم يتهيأ لأترابها من طالبات المدرسة السنية.. فلما تخرجت عينت معلمة في نفس المدرسة. وكان احترافها للتدريس - في حد ذاته - خطوة

تقدمية فى عصر كان العمل فيه مقصوراً على ذوات الحاجة المعوزات. وانطلقت تدعو بنات العلية للنزول إلى ميدان العَمل، بدلا من حياة الثرثرة والخمول والاتكال على الآباء والأزواج. واجتذبت شهرتها أحد سراة البدو فى إقليم الفيوم، فخطبها وتزوجها، وهى لم تزل فى ميعة الصبا، وحملها إلى مضارب القوم على حافة الصحراء. وودعت الفتاة حياة القاهرة بأضوائها وشهرتها.. وخلعت رداء المجتمع المصرى، وتزيت بالزى البدوى المتمثل فى العباءة والكوفية والعقال، واستقبلت حياتها الجديدة بروح راضية ونفس قانعة. وبدت لها البادية طريفة شائقة، يزيدها الغموض والإبهام سحرا على سحر، فأسلمت «ملك» نفسها إلى فتنة غامرة، واستسلمت لقدرها يقودها خيالها الشعرى إلى المجهول الساحر. وتمثلت لها رؤى بعيدة رأت فيها نفسها تحمل قبس النور ومشعل الحياة، إلى مجاهل البادية، وتنقل إلى أهلها ما اختزنته روحها من علم ومعرفة وحب صادق.

ومرت السنوات الأولى من الحياة الزوجية لا يعكرها غير نظرات قلقة من جانب الزوج الذى كان ينتظر من زوجته الجديدة، أن تلد له أولادا، يرفعون من قدره فى مجال الزعامة

القبلية، ثم تحول القلق إلى محنة، عندما تأكد للزوجة الشابة أنها لن تحقق للزوج أمله فى الوريث. أما هو فلم يثر حوله الشكوك فى قدرته على الإنجاب. فقد سبق له الزواج بابنة العم وأنجب منها فتاة، وبذلك لصقت تهمة العقم بالزوجة الطارئة، وحكم الناس عليها بأنها عاقر عقيم.. وتحولت نظراتهم إليها إلى سهام مسمومة، تنال من كرامتها وكبريائها فى مجتمع يزن المرأة بعدد ما تلد من أولاد.. وليس بمقدار ما تحمل من علم وثقافة وحب للإنسانية. وأدركت «ملك» أن عليها أن تخوض معركتين فى وقت واحد: معركة استرداد كرامتها الجريحة أولا.. ومعركة تحرير نساء القبيلة من هذا العرف الصارم الظالم الذى يهدر حق الأنثى فى الحياة إذا لم تلد.. وهو أمر لا ذنب لها فيه.. وحول هذه المرحلة الحرجة من محنة باحثة البادية، تقول الدكتورة عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطئ) ! إن ملك حشدت للمعركة قوى شبابها وعلمها، وظاهرتها قوى أخرى من كبريائها الجريحة، وسعادتها الموءودة، وأمومتها المحرومة، وقلبها الممزق.. وخاضت المعركة بجسمها وروحها بقلمها ولسانها، ببشريتها وإنسانيتها، بدمها وأعصابها.. ولكنها وجدت نفسها فجأة تنساق بالرغم منها مع تيار العرف السائد، فتشتهى الولد اشتهاء قاهرا قاسيا

وتكابد من أهوال الحرمان ما لا طاقة لبشريتها باحتماله. ثم بلغ بها الأمر مداه، فإذا هى - المتعلمة المثقفة الممتازة - تنظر إلى خادماتها الحوامل والأمهات، نظرة من تود لو دفعت كل جاهها وثروتها وكل علمها وثقافتها، ثمنا لوليد - أى وليد - تحمله مثلهن وتاقت نفسها إلى عيشة خشنة متواضعة مع زوج لها وولد، فى عش من قش، وخيمة من صوف، وكوخ من خشب..!!

وقد روعها هذا الانهيار النفسى، أكثر مما روعتها المحنة ذاتها، فانصرفت عن حرب القوم لتحارب نفسها، ولاح لها وسط هذه الظلمات المتراكمة شعاع هزيل من نور.. لقد كتب عليها الشقاء، فما تستطيع أن تمحو هذا المكتوب، ولا أن تجعل من العاقر ولودا.. ولكنها تستطيع أن تفعل شيئا لسواها من التعيسات اللاتى يتجر عن الخسف والهوان، وتستطيع أن تصور للناس تلك المحنة التى نغصت حياتها، وتقص على الضمير الإنسانى قصة تلك المخلوقة البائسة التى أهينت لأنها عاقر..!!

تقول بنت الشاطئ فى تأريخها لحياة باحثة البادية: من ذلك الحين، اتجهت ملك إلى الحياة العامة تحارب فى الميدان

الاجتماعى، وتكافح من أجل جميع النساء.. وراحت تبعث من مأواها النائى صيحات تسجل قضية «الجنس» تسجيلا صريحا دقيقا، وتعبر عن آلامه بصوت مؤثر.. وقد رددت «الجريدة» صدى هذه الصيحات التى ظلت تنطلق من البادية أعواما طوالا، فما أضعفها طول العهد.. وأصغى الناس مبهورين إلى «النسائيات»، وتلقاها شيوخ الأدب مقدرين، ورأى عميدهم - أحمد لطفى السيد باشا - أن هذه النسائيات قد اشترك فى تأليفها «ما ورثته ملك عن أبيها من ذوق فى الكتابة وملكة الانتقاد». أما بنت الشاطئ فترى أنها ثمرة حياة «ملك» فى البادية بعد زواجها: تلك الحياة التى أنضجتها التجربة، وهذبها الألم، وأرهقها الحرمان.. لقد ظلت المسكينة تتلوى فى باديتها من حرقة الظمأ، و أمست حياتها قطعة من العذاب ولونا من الاستشهاد..

أجل.. الاستشهاد فى سبيل قضية خاسرة.. فقد شاء القدر لهذه المخلوقة المعذبة أن تعرض نفسها على طبيب شهير فى الآستانة ليعالجها من العقم.. وفحصها الطبيب مرة.. ومرة.. ومرات.. ثم كانت المفاجأة المرعبة عندما اكتشف أنها ليست عاقرا.. وأن قدرتها على الإنجاب لا تقل عن قدرة غيرها من بنات حواء..!!

من أين إذن جاءت تهمة العقم..؟؟

لقـد تبين أن الزوج ـ بعـد إنجـابه من زوجـتـه الأولى ـ أجريت له عملية جراحية عاد بعدها عقيما لا ينجب..!! ولم تتـحمل المسكينة هول الصدمة.. فـذابت كـما تذوب الشـمعة المحـترقـة.. وذوى رحـيـقـهـا فى احـتـضـار بطئ حـتـى أسلمت الروح فـى ١٨ أكـتـوبر ١٩١٨، وهى فـي ريعـان العـمـر وعـز الشبـاب.. ولم تتعد الثلاثة والثلاثين ربيعا.. ولم يصمد أبوها المسكين للفاجعة فأصيب بالشلل ولحق بابنته بعد شهور.

محامى العظماء

كانت أول مرة، رأيت فيها الأستاذ عباس محمود العقاد، فى أواخر الخمسينيات. كنت وقتها طالباً بالجامعة، وأخطو خطواتى الأولى فى بلاط صاحبة الجلالة.. وسمعت عن الندوة التى يعقدها العقاد كل يوم جمعة فى منزله فى مصر الجديدة. فسعيت إليها مع نفر من زملائى القادمين من الريف، وفى طليعة اهتمامنا أن نرى الأدباء والمشاهير الذين قرأنا لهم، ورأينا صورهم فى الصحف والمجلات وسمعنا أصواتهم من الراديو.. ولم تكن رؤية العقاد مفاجأة لى. كانت حقيقته تقارب الصورة التى رسمتها له فى خيالى.. عملاقا.. أشبه بفارس قائم على صهوة جواده، شاهر سيفه، وكأنه على استعداد دائم للنزال.. ولكن المفاجأة كانت فى اعتداده بنفسه واحترامه لذاته إلى حد الغرور!

أذكر في إحدى الجلسات أنه كان يتكلم عن جائزة نوبل، والسبب في عدم اقترابها من منطقة الأدب العربي، فتطاول أحد زملائنا وسأله: ومن ترشح من الأدباء العرب لنيل هذه الجائزة؟ فأجابه العقاد على الفور:

أنا يا أخي.. وهل يوجد من يستحقها عن جداره غيري؟!! ورغم أن الرد كان أشبه بمزحة أو نكتة، إلا أن أحداً من الجالسين لم يجرؤ حتى على الابتسام.. وواصل العقاد حديثه عن نفسه، معددا جوانب العظمة في قيمته الأدبية، حتى لكأنه كان يتحدث عن شخص آخر..!! ووجه المفاجأة لي وزملائي - ليس في أن العقاد لا يستحق جائزة نوبل، فهو بلا جدال أكبر منها، ولكن في أنه كان يتحدث عن نفسه بطريقة تصادم طبيعة التواضع التي نشأنا عليها في الريف. ولكن العقاد تجاوز هذه الحالة التي تتخفى في رداء التواضع، لتتجاهل جوانب العظمة التي يراها أجدر بالجلاء، وأحق بالذيوع والتبيان.

لم أكن، في ذلك الوقت المبكر، أعرف أن العقاد من المؤمنين بالعظمة والمبشرين بالعبقرية التي ترقى بأصحابها وترتفع بهم من صفوف العامة إلى مراتب العلية النادرين. ثم

اقتربت من العقاد فى كتبه، وعايشت أبطاله المرموقين فوجدته «محاميا» بليغا يصول فى محكمة التاريخ بصوته الجهورى، وحججه القوية، وعباراته اللاذعة، مدافعا عن أبطال الإنسانية وقادتها وعظمائها، كاشفا عن جوانب العظمة والسمو فى شخصياتهم، ماسحا ما علق بهم من افتراءات الجهلة وتجنيات الحاقدين، رغم ثقته بأن أبطاله ليسوا فى حاجة إلى دفاع، فيكفيهم مجدا أنهم أدوا رسالتهم، وقالوا كلمتهم واحتلوا مكانا عليا فى مراتب الخلود. إنما كان العقاد يهمه أن تعرف الإنسانية أن قيمتها لن تتحقق ما لم تعرف لعظمائها السالفين واللاحقين حقهم من الاحترام والتوقير.

كان أشد ما يؤلم العقاد، أن تتفشى تلك الجراثيم الخلقية عند الناشئة، فتجنح بهم إلى الغض من قيمة البطولة والاستخفاف بالعبقرية الفردية، التى هى قيمة مغروسة فى النفس قبل أن تبرزها الأعمال والتجارب. وكان من أخطار هذه النزعة المريضة أن أصبح التطاول على العظماء موضة تقدمية يتباهى بها الجهلاء والحاقدون. وإذا سألت العقاد عن سر تمجيده للبطولة والأبطال فسوف تجد عنده الجواب الأوفى: إن إيتاء العظمة حقها، لازم فى كل آونة وبين كل أمة، ولكنه فى زماننا هذا ألزم منه فى أزمنة سالفة. وعالمنا المعاصر

أحوج ما يكون إلى المصلحين النافعين لشعوبهم وللإنسانية كافة، ولكن كيف يتاح لمصلح أن يهدى قومه وهو مغموط الحق!! معرض للجحود والنكران!! وهل تستطيع الإنسانية أن تفرز أبطالا جدداً ما لم توف أبطالها السالفين حقهم من التوقير والإجلال؟!!

لقد هال العقاد، كما هال كل غيور، أن يرى الناس قد اجترءوا على العظمة رغم حاجتهم إلى هدايتها، وأفزعه أن يرى الجهلاء والدهماء والغوغاء يغضون من قيمة الأبطال، وينالون من مكانتهم، ويتجنون على أقدارهم، وتلحق بهم المثالب والنقائص. وهذا التجنى له عند العقاد مسببات كثيرة، أهمها ذيوع الحقوق العامة وشيوع نزعة المساواة، مما أغرى صغار النفوس بإنكار الحقوق الخاصة للعظماء الذين ينصفهم التمييز وتظلمهم المساواة. وهو يرى أن بعض الناس قد أساءوا فهم (الديمقراطية)، وظنوا أنها حرية الصغير فى تجريح الكبير، وأن المساواة القانونية تلغى الفوارق الطبيعية، وأن الثورة على الحكام المستبدين معناها الثورة على كل ذى مكانة من العظماء، فكثر التطاول على كل عظمة إنسانية، ولكن إلى أى مدى كان هذا المنهج صحيحا فى تقييم الأبطال؟

لقد كان الأستاذ العقاد مفتونا بأبطاله إلى درجة الوجد

الصوفى.. فهو لا يقبل نقدا لتصرفاتهم، حتى لو كان التصرف بسيطا هينا. ويرى فى نقد الأبطال محاولة مفتعلة للتطاول عليهم والزراية بهم.. وكان العقاد يسخر من مناهج البحث التاريخى، التى تتناول حياة الأبطال بعين فاحصة تفصل ما بين الحسنات والسيئات فى سلوكهم، ويستنكر مسلك الكتاب الذين (يزعمون) الإنصاف عندما يفرقون بين الثناء والملام، ويسترسلون فى سرد الحسنات، ثم ينقلبون من كل حسنة إلى عيب يكافئها، ويشفعون كل فضيلة بنقيصة تعادلها، فهم - فى رأيه - يفعلون ذلك توقيا لمظنة المغالاة والإعجاب المتحيز، بينما هو يرى فى التحيز شيئا لا يستحق الملام، بل يمضى إلى أبعد من ذلك، فيصف هذا المنهج بالمراءاة والكذب والتمسح بالعدل والإنصاف والموضوعية، وهى منه براء.. وأصحاب هذا المنهج - عنده - لا يقلون ظلما عن القاضى الذى تحاكم إليه أحد الملوك فى ملكية عقار ينازعه فيه بعض السوقة، فحكم القاضى على الملك بغير الحق ليغنم سمعة العدل فى محاسبة الملوك فما كان من الملك إلا أن عزله لأنه حكم بالظلم وهو يبتغى الرياء بظلمه، فكان الملك عادلا؛ لأنه أنصف، وهو مستهدف لتهمة الظلم؛ وقاضيه قد ظلم، وهو

يتراءى بالإنصاف.

* * *

وبهذا المعيار انبرى العقاد للدفاع عن أبطاله وتبرير تصرفاتهم جملة وتفصيلا فكل تصرف منهم له عنده مسوغ، وكل خطأ له دوافع وظروف تنقله إلى دائرة الحسنات التى يستحق عليها التقدير والإعجاب. فلا يثير العقاد شئ قدر أن تحاسب أبطاله، وتخضعهم لمقاييس الخطأ والصواب، فهل بلغ العقاد بأبطاله مرتبة العصمة التى لا يجوز معها نقد أو حساب؟ وهل أضفى عليهم حصانة لم يفرضوها هم على أنفسهم؟ إن قارئ «العبقريات» لابد أن يخرج بهذا الانطباع.. ولا يملك إلى أن يتساءل عن مدى صحة هذا المنهج.

وإذا كان لكل فعل رد فعل معاكس له فى الاتجاه، كما يقول علماء الطبيعة، فإنه يمكننا أن نتفهم أسباب مغالاة العقاد فى حماية أبطاله.. لقد كانت ردة فعل لنزعة الاستخفاف والتطاول التى شاعت فى حياتنا السياسية والفكرية والأدبية، بعد ذيوع مناهج البحث الأوربية التى تعالج الظاهرة «الإنسانية» بنفس البرود الذى تعالج به الظاهرة «الطبيعية»، وتتناول حياة الأبطال بأسلوب تشريحى مجرد من اعتبارات التقدير والاحترام والتكريم. فإذا أضفنا إلى كل ذلك نزعة الحقد

الكامنة عند بعض المستشرقين، لأدركنا سر غضبة العقاد، وتصديه لهذه الهجمة الشرسة، التى تهدد الأبطال وتزعزع مكانتهم السامية فى نفوس الناس. فكان عليه أن يحمى عباقرة الإنسانية عامة، وأبطال الإسلام بخاصة - من عمليات التجريح والتشويه التى كانت تجرى باسم العلم والأمانة والموضوعية.

* * *

ولكن الحصانة التى فرضها العقاد على أبطاله، كان من شأنها أن تؤدى إلى عكس الغرض الذى أراده، لأنها تتناقض مع أصل من أصول الفكر السياسى فى الإسلام، وهو حق الرعية فى محاسبة الراعى، ونزع العصمة عن الحاكم حتى تسهل محاسبته. وكان الخلفاء الراشدون يعون هذه الحقيقة وعيا تاما، ويحرصون على إعلانها وتأكيدها فى خطب البيعة التى يلقونها على جمهور الأمة فى أول يوم من أيام ولايتهم. ومضى علماء الإسلام الأوائل فى تطبيق هذا المنهج المتوازن فى تقدير الرجال، حتى انتهى بهم إلى تأسيس علم «الجرح والتعديل»، وهو علم جليل لم تعرف له سابقة عند الأمم السالفة، وهدفه التثبت من صحة الروايات والأخبار المتواترة عن طريق نقد الرواة - وبعضهم من الصحابة والتابعين -

والتأكد من أمانتهم وعدالتهم، أو عكس ذلك من كذب أو غفلة أو نسيان. وكان العلماء يختبرون بأنفسهم من يعاصرونهم من الرواة، ويسألون عن أحوال من سلف وأخلاقهم وسلوكهم، ثم يعلنون رأيهم فيهم دون تحرج أو شعور بالإثم، لأنهم كانوا يضعون الحقيقة وحدها نصب أعينهم. وعلى هذا الأساس المتين نهضت مناهج البحث فى ظلال النهضة العقلية والفقهية والفكرية التى يفخر بها الإسلام.

ولم يكن الأستاذ العقاد غافلاً عن ذلك، ولكنها العاطفة الحارة التى انطوت عليها نفسه الكبيرة تجاه أبطاله، فآثر أن يقدمهم إلى الناس، وقد أحاطت بهم حالة من الجلال والجمال.. ولم يكن من اليسير، أن يمر منهج العقاد، دون أن يتعرض للنقد من جانب معاصريه الذين كانوا يؤثرون تقديم الأبطال في صورة واقعية متوازنة. وفى ذلك يقول العلامة أحمد أمين:

إن العظيم مهما عظم فله خطآت... وإلا ما كان إنساناً.. والعصمة لله وحده.. فهل واجب الكاتب أن يعرض لكل ذلك فى تفصيل، فيذكر كل ماله ويشيد بذكره ويذكر خطآته وينقدها، ويعلم بذلك درسا فى نواحي مجده، ودرسا آخر فى مواضع خطئه؟ أم أن واجبه فقط تجلية العظمة والتأويل

والدفاع الدائم عن نواحى الخطأ..؟

ولا يخفى العلامة أحمد أمين انحيازه إلى الرأى الأول.. فما رأيك أنت يا عزيزى القارئ..؟

أدب الحشيش

لا يعرف بالضبط متى تسلل الحشيش إلى مصر.. وإن كان المقريزى يذكر فى خططه، أن القنب الهندى انتقل إلى بلاد فارس، ومنها إلى العراق ومصر، خلال القرن السابع الهجرى، وأن أول من اكتشف «الحشيشة» فى خراسان، هو الشيخ «حيدرة» المتوفى عام ٥٦٢، وأنه جعلها وقفا على رفاقه من رجال التصوف فى خراسان، ولم يشأ أن يذيع سرها على الناس، وأوصى أصحابه بأن يزرعوها على قبره بعد موته.. ثم انتقلت الحشيشة من خراسان إلى بغداد حيث أكثر المتصوفة هناك من تعاطيها، وعن طريقهم انتقلت إلى الشام ومصر، حيث سميت بحشيشة «الفقراء» وهو الاسم الذى كان يعرف به فقراء الصوفية.

ولكن بعض المؤرخين، يرى أن الحشيش تسلل إلى مصر مع الحملات المغولية على ديار الشرق الإسلامى، وينقل

محمد بن بهاء الزركشي صاحب رسالة «زهر العريش في الكلام عن الحشيش» عن الإمام ابن تيمية قوله إن الحشيشة ظهرت في أواخر القرن السادس الهجرى حين ظهرت دولة التتار.. وإن تلك المادة انتقلت مع التتار إلى بغداد.. إلخ.

وبظهور الحشيش فى مصر، أصبح غرضا من أغراض الأدب، يتغنى به الشعراء ويتغنون بإظهار محاسنه مثلما كان أبو نواس وبشار يمتدحان الخمر فى حانات بغداد.. وكان شعراء الحشيش فى مصر لا يجدون حرجا فى الدعاية له ظنا منهم أن الدين لا يحرمه، وأن أحدا من كبار الفقهاء لم يفت بتحريمه، متجاهلين الفتاوى الصريحة التى أعلنها ابن تيمية فى شأن تحريم الحشيشة. ومن نماذج الشعر فى ذلك العصر ما نظمه محمد بن على بن الأعمى:

دع الخمر واشرب من مدامة «حيدر»	معنبرة خضراء مثل الزبرجد
هى البكر لم تنكح بماء سحابة	ولا عصرت يوما برجل ولا يد
ولا نص فى تحريمها عند مالك	ولا عند الشافعى وأحمد
ولا أثبت النعمان تنجيس عينها	فخذها بحد المشرفى المهند

فأنت ترى فى هذا الشعر تحقيراً للخمر، وإشادة بالحشيش، بزعم عدم تحريمه عند أئمة الفقه الأربعة، وتلك لعمرى

مغالطة مفضوحة، ومحاولة ساذجة لتحليل شيء محرم.. وصدق المجتهدون فى تحريم الحشيش قياسا على الخمر، لاشتراكه معها فى علة الحكم. وهو غياب العقل.. والعلاقة بين الحشيش وغياب العقل علاقة تاريخية، منذ ظهرت طائفة الحشاشين «الإسماعيلية» فى شمال إيران واستخدموا الحشيش فى تخدير الأتباع وشل إرادتهم قبل تكليفهم باغتيال الخصوم والأعداء، وفى ذلك يقول الدكتور على صافى حسين فى كتابه «الأدب الصوفى فى مصر»: والرأى الذى نرجحه ونرتضيه هو أن الحشيشة عرفت فى قلعة «الموت» فى شرق الدولة الإسلامية على يد أتباع حسن الصباح، الذى تزعم الإسماعيلية الباطنية الشرقية، تلك الطائفة التى اشتهرت بين المؤرخين باسم «الحشاشين».

وكان الحسن الصباح قد تحصن فى تلك القلعة الشماء، وأطلق عليها اسم «الموت» ومعناها عش النسر لوعورة موقعها، ونشر فيها البساتين الفيحاء وأنهار العسل والخمر لتكون جنة الأرض السرية التى يستمتع فيها أتباعه، ويقال إنه كان يستخدم الحشيش فى تخدير الشباب الأغرار حتى أصبحوا طوع بنانه لا يخالفون له أمرا.. وكان يبعث بهم فى غارات

مفاجئة لاغتيال السلاطين والأمراء والوزراء من خصوم الإسماعيلية فينطلقون لتنفيذ ما كلفوا به فى جسارة وإقدام، ولقد راح ضحية هذه الاغتيالات عدد كبير من زعماء العالم الإسلامى وباتت كلمة حشاشين Assassin فى اللغات اللاتينية تعنى فرق الاغتيال.

وإذا كان هناك إجماع على نسبة هذه الحوادث إلى طائفة الإسماعيلية، إلا أن بعض المؤرخين يشكك فى دعوى استخدام الحشيش فى تطويع إرادة الأتباع، وحجته فى ذلك أن تعاطى الحشيش يؤدى إلى الجبن والخور والتردد.. وهى صفات تنافى حالة الجسارة التى كان يتصف بها الفدائيون.

فالمؤرخ المعروف برنارد لويس المتخصص فى تاريخ الإسماعيلية فى كتابه «الحشاشون» ترجمة الأستاذ محمد العزب موسى - يرفض قصة استخدام الحشيش ويرى أنها غير صحيحة إطلاقا.. فاستخدام الحشيش وآثاره، كان شيئاً معروفا فى ذلك الوقت، ولم يكن بالسر المجهول أو وقفا على زعماء الإسماعيلية.. ولم يذكر أحد من الكتاب الإسماعيليين أو كتاب السنة الجادين أن الإسماعيلية كانوا يستخدمون هذا المخدر.. أما إطلاق وصف الحشاشين على تلك الطائفة فإن لويس يراه

دلالة على احتقار العقائد الفاسدة والسلوك المعيب لأعضاء تلك الفرقة.. فهو تعبير ساخر عن سلوكهم أكثر من كونه وصفا حقيقياً لأفعالهم..

وسواء صحت أم لم تصح دعوى استخدام الإسماعيلية للحشيش، فإن الصحيح أن الحشيش كان أحد مصادر البلاء التى عمت العالم الإسلامى، ونخرت عظامه، وأشاعت فى شعوبه الخمول والكسل والانحطاط.

أحمد شفيق باشا شاهد على العصر الحديث

هو أكبر مؤرخ عرفته مصر الحديثة بعد الشيخ عبدالرحمن الجبرتى.. كلاهما اتخذ من التأريخ هواية تحولت إلى حرفة.. وكلاهما اعتمد فى كتابة التاريخ على مشاهداته الخاصة، ورواية الأحداث التى عاصرها، ولم يعتمد على ما كتبه المؤرخون من قبل أو من بعد. الفرق بينهما أن الجبرتى ينتمى إلى المدرسة القديمة، فهو آخر حلقة فى سلسلة مؤرخى العصور الوسطى العظام من المقريزى إلى إبن إياس.. فنسج على منوالهم فى الصياغة اللفظية والالتزام بالسجع والمحسنات البديعية. أما أحمد شفيق باشا فينتمى إلى المدرسة الحديثة التى تحررت من الأساليب العتيقة بعد ظهور الصحف والتطورات التى شهدتها الحياة الثقافية والفكرية واللغوية منذ عصر إسماعيل.

فالجبرتى ابن عصره، وثقافته صورة للحياة العقلية

والاجتماعية التى كانت سائدة فى القرن الثامن عشر والمحصورة فى القشور التى كان يقدمها الأزهر لرواده، وأحمد شفيق نتاج النهضة العلمية التى انبثقت منذ أواسط القرن التاسع عشر، وأتيح له من مقومات التثقيف مالم يتح لسلفه، فجاء تاريخ كل منهما - فى المنهج والصياغة - صدى لعصره.

الفرق الثانى أن الجبرتى كان يسجل الأحداث من خارجها، يدون ما يتناقله العلماء والمشايخ والتجار ورؤساء الطوائف، ولكنه لم يكن موظفاً فى دولاب الدولة، ولا قريباً من مراكز صنع الأحداث. ولم تتوفر له معاينة أو تحقيق بعض الوقائع الهامة التى شهدتها مصر رغم قربه منها، فهو لم يشهد وقائع محاكمة السيد محمد كريم، حاكم الاسكندرية، بعد أن قبض عليه نابليون وأعد له محاكمة صورية ساومه خلالها على حياته مقابل دفع فدية باهظة. واكتفى الجبرتى بذكر ما تناقلته ألسنة العامة بأن كريم - بعد سماع الحكم بإعدامه - استغاث بالمشايخ والتجار لكى يجمعوا له المال المطلوب، وصاح بأعلى صوته: «اشترونى يا مسلمين.. ولكنهم لم يغيثوه.. فقد كان كل إنسان مشغولاً بنفسه» وهى صورة مزرية تكشف عن ضعف وتخاذل(!!).

لاحظ الرافعي المؤرخ غرابة هذه الرواية الجبرتية.. ورفضها.. ورجح عليها رواية المؤرخين الفرنسيين الذين شهدوا وقائع المحاكمة، وأشادوا بشجاعة كريم ورفضه المساومة على حياته.. وفي رأى الرافعي: لو كانت رواية الجبرتي صحيحة لما أهملها الفرنسيون.. ولما سجلوا رواية تشرف خصماً لهم حكموا عليه بالإعدام.. فالجبرتي لم يشهد المحاكمة رغم أهميتها له كمؤرخ.. وأغلب الظن أنه كان منزوياً في بيته بالصنادقية في ذلك اليوم العصيب..

(راجع كتابنا: مصر من نافذة التاريخ)

أما التاريخ الذى كتبه أحمد شفيق باشا فهو تسجيل لأحداث عايشها بنفسه بحكم وظيفته في مقر الحكم.. وقربه من مراكز صنع الأحداث.. بل شارك في بعضها عن طريق السفارات التي كان يكلف بها.. والمفاوضات التي كان يساهم فيها.. ولعل أهم حدث تاريخي شهده أحمد شفيق هو إندلاع الثورة العرابية، وقد عاصر أحداثها وتطوراتها حتى نهايتها المفجعة حيث كان ملازما للخديو توفيق في الأسكندرية أثناء ضرب المدينة بقذائف الأسطول البريطاني يوم ١١ يوليو ١٨٨٢م، وسجل لحظة ورود برقية الإعلان عن هزيمة

العرابيين، وكيف تساقطت دموع الحزن من عيون توفيق بينما كان كبار المصريين والأجانب يرقصون طرباً.. وهو يسجل هذا المشهد المؤسف في مذكراته كما رآه فيقول: «وقد رأيتهم بنفسى محتشدين فى فناء الطبقة العليا من السراى، وهم يهتفون لسموه وللإنجليز، وقد بلغ التحمس والسرور ببعض الأجانب أنهم كانوا يخلعون قبعاتهم ويقذفون بها إلى السقف ابتهاجاً بهذا الانتصار.. أما توفيق، فعلى الرغم من أنه كان يعلم أن إنكسار العرابيين يؤول إلى توطيد عرشه، فقد عزّ عليه أن يتم له ذلك على يد الأجانب، وعلى حساب بلاده، ومذلة شعبه، وقد كان سموه من الأمراء الذين تصبوا نفوسهم إلى عروش وطيدة الأركان، ولكن مدعمة بحب الرعية وولائها، وليس إلى عروش واهية، قائمة على رؤوس الأسنة وشفا السيوف؛ ولذا كان الارتياح الذى بدا على محياه بانهزام العرابيين مشوباً بالحزن، وكانت الدموع التى تساقطت من عينيه ساعة ورود البرقية معبرة عن شعوره أصدق تعبير..».

مذكراتى فى نصف قرن :

نحن بإزاء مؤرخ يرى الأحداث تترى أمامه فتتحول عيناه إلى عدسة كاميرا تسجل ما تراه دون زيادة أو نقصان،

وتلك قيمة التاريخ الذى كتبه أحمد شفيق فى شكل مذكرات أو يوميات جمعها فى كتاب من ثلاثة أجزاء عنوانه (مذكراتى فى نصف قرن) تبدأ من سنة ١٨٧٣ حتى سنة ١٩٢٣م وهى فترة حافلة بالأحداث الجسام التى وقعت منذ عهد الخديو إسماعيل حتى عصر إبنه الملك أحمد فؤاد. وكان أهمها وقوع الثورة العرابية ثم فشلها وبدأ الاحتلال البريطانى لمصر. ثم اشتعال الحرب العالمية الأولى واندلاع ثورة ١٩١٩ .. وقد تعاقب على حكم البلاد خلال هذه المدة الخديويون: إسماعيل وتوفيق وعباس حلمى الثانى ثم السلطان حسين كامل الذى خلفه أخوه أحمد فؤاد، كما شهدت الفترة بواكير الحركة الوطنية التى استيقظت من غفوتها على صوت مصطفى كامل، وإنشاء الجامعة، وظهور الأحزاب والصحف الوطنية وتحرير المرأة وانتشار التعليم وتطوير الأزهر والكفاح من أجل الاستقلال الذى بلغ ذراه فى مارس ١٩١٩ اثر إعتقال سعد زغلول وصحبه ثم تصريح ٢٨ فبراير وإعلان الدستور ودخول مصر عهد الحياة النيابية على قواعد الانتخاب الشعبى العام.

كتب أحمد شفيق تاريخه فى شكل «مذكرات» استجابة لهواية رافقته منذ صباه، وعندما تقدمت به السن جمعها فى عام ١٩٣٤م فى كتاب من ثلاثة أجزاء:

الجزء الأول: يبدأ من أواخر عصر إسماعيل إلى وفاة توفيق.

الجزء الثانى: عن عهد عباس الثانى.

الجزء الثالث: يتضمن استكمالاً لعهد عباس الثانى وقيام الحرب العظمى حتى سنة ١٩٢٣م.

ومن الميزات التى تنفرد بها مذكرات أحمد شفيق أنه ضمنها عدداً كبيراً من الصور النادرة التى لم يسبق نشرها، وتتعلق بالمناسبات التى تتحدث عنها المذكرات، فصارت مرجعاً يقتبس منه كتاب التاريخ وعشاقه، وكتب أحمد شفيق مقدمة للمذكرات استهلها بهذه الكلمات:

«اليوم أقدم لهذا الجيل، ثم الأجيال المقبلة من بعده، صفحة من تاريخ مصر، فى حقبة من الزمن، لم أشأ أن أطوى الحياة فيها سدى، وأن أشهد أحداثها تجرى سراعاً دون إثباتها وتسجيل أدوارها، وما أدركت من وقائعها، فقيدت شواردها فى بطون هذه المذكرات التى شغل تدوينها فراغاً عزيزاً من حياتى، وأودعتها سجلاً حافلاً لمجرى الحوادث والشئون فى هذا العهد، وكثيراً من خواصه وذكرياته..».

أما الدوافع التى دفعته إلى تدوين هذه المذكرات فهى عوامل كثيرة: «كان بعضها كامناً فى نفسى، والبعض الآخر

هيأته الظروف التى أحاطت بى، وكل عامل منها يكفى بذاته لأن يدفعنى إلى تسطيرها، فلما اجتمعت زاد الاهتمام بها فى نفسى، ولا سيما أننى كنت أشعر منذ الحداثة بشغف قوى إلى تدوين مذكرات يومية عن دراستى وأحوالى، وما أستطيع إدراكه ومشاهدته، وكان طبيعياً لإنسان فطر على هذا الميل أن يهوى التاريخ، وأن يشغف به، ولذلك كانت دراسته ومطالعته أحب الأشياء إلى نفسى، إذ كانت تلقى فيها أهبة لاستيعابها، خصوصاً بعد أن درست العلوم السياسية فى باريس، وقد دفعنى إلى دراستها شعور وطنى يتصل بلا ريب بمجرى الحوادث الخطيرة التى كانت تتعاقب يومئذ على مصر» .

أما عن أثر مهامه الوظيفية فى حياته العلمية والتأريخية فيقول عنها: «لعلها حكمة لم أدركها، وإن كنت أعتقد أنها كانت أكبر عامل فى تغذية ميولى وتفتح غرائزى، أن هيأ لى القدر السعيد أن أكون منذ نشأتى الأولى قريباً من ولى الأمر فى البلاد، وأن أتاح لى أن أكون موضع عطف خديوى (يقصد توفيق) ثم موضع ثقة خديوى (يقصد عباس الثانى) وأن أقف بطبيعة الحال على مجرى الحوادث ومصادرها، ومبعث أطوارها وتقلباتها، متدرجاً فى ذلك من عهد الفتوة إلى عهد الكهولة، وكلما انقضى عام، بل شهر، تفتحت لى من

الحوادث أبواب، واستطعت أن أستخلص منها صحفاً جلية في شئون مصر وأحوالها، ولم يكن يثنيني عن تدوين هذه المذكرات عمل ولا لهو، وما كانت مشاغلي الخاصة لتحول بيني وبينها، بعد أن غدت جزءاً لا يتجزأ من برنامج حياتي، فكنت أدونها أثناء الدراسة بين كد الدرس والمذاكرة، ولا أفتر عن تقييدها أثناء أسفاري خارج مصر، ذلك أن تدوينها كان في ذاته سلوى لي، لأنه يتصل بعامل خفي في نفسي، هو الشغف بتسطيرها ثم استجناء مسرة استعراضها، وما آنسه في ذلك من لذة معنوية».

وإذا كان العرف قد جرى بأن تنشر مذكرات الإنسان بعد وفاته، إلا أن أحمد شفيق خالف هذا العرف، ونشر المذكرات في حياته. ولما كان يشعر بأن هذه المخالفة قد تثير تساؤلات الناس، فإنه برر ذلك بقوله: «إنني خشيت تناثرها بعد وفاتي، أو نشرها مشوهة مبتورة، ثم إن فيها ما يتعلق بشخصيات مازالت على قيد الحياة، فإذا نشرت اليوم كان ثمة مجال لفحصها ونقدها إن كان محل للنقد، كما أنه كان من الشجاعة الأدبية أن تنشر مذكرات في حياة مدونها فيحتمل - وهو على قيد الحياة - كل تبعة فيما تسجل من الحوادث والشئون».

السيرة الذاتية :

ومن السمات المميزات لمذكرات أحمد شفيق أنه استهلها بنبذة عن نشأته وحياته، ولا يقصد بذلك أن يضفى على حياته أهمية ولا أن يثبت لنفسه مواقف البطولة، وإنما ليكشف عن عوامل تكوينه وخواص البيئة التي نشأ فيها، وتقديم صور صادقة عن الحياة الاجتماعية التى تقلب فى أدوارها منذ الحداثة. فهو بدلاً من أن يقدم لنا فصلاً تمهيدياً عن البيئة التى عاصرها ـ كما يفعل بعض الكتاب ـ آثر أن يقدم هذه الحياة من خلال حياته هو، وسيتعرضها كما وقعت أمام ناظريه، وكما انعكست على أطوار حياته، فذلك عنده أدنى إلى الصدق والدقة.

فيذكر أنه ولد فى عام ١٨٦٠م بمنزل والده جنن موسى بشارع اللبودية قرب السيدة زينب، وقد شغل والده عدة وظائف مالية هامة في أيام سعيد باشا وإسماعيل وتوفيق وكانت آخر وظائفه مأمور مالية الدقهلية، ولم يترك ثروة كبيرة خلافاً لما كان يعتقد نظراً لأهمية الوظائف التى كان يشغلها، ونفهم من ذلك ـ تلميحاً وليس تصريحاً ـ أن الأب كان نزيهاً، ولم يجمع لنفسه ثروة كما هو متوقع ممن يشغل مناصب تتعلق بالمال العام، أما والدته فهى شركسية الأصل من معاتيق السيد على البكرى، وتلقى تعليمه الأولى فى كتاب

قريب من منزل الأسرة، ثم انتقل منه إلى مكتب أرقى حفظ فيه القرآن الكريم وتعلم اللغتين العربية والتركية وكان من زملائه بهذا المكتب بطرس غالي باشا، ومنه انتقل إلى مدرسة المبتديان الابتدائية في بعثة أرسلها ولي العهد توفيق باشا تضم عشرين تلميذاً من أبناء الموظفين فى دائرته ويتعلمون على نفقته ويدعوهم إلى النزهة فى سراى القبة وهناك يشاركهم الطعام ويطمئن على دروسهم، ولما أنشأ توفيق مدرسة القبة الثانوية انتقل إليها طلاب البعثة، وهو يتحدث عن رعاية توفيق لطلابه حتى أنه كان يجلس القرفصاء ليتذوق الطعام ليتأكد من جودته. وبعد تخرجه من المدرسة التجهيزية شغل أول وظيفة له بمرتب جنيه واحد فى الشهر وهى وظيفة «معيد» أى مدرس مبتدئ بنفس المدرسة، ثم انتقل إلى وظيفة (مبيض بالقلم الأفرنجى) بوزارة الداخلية بمرتب ستة جنيهات ثم تنقل فى عدد من الوظائف حتى شغل وظيفة (معاون) فى الخاصة الخديوية وبقى فى وظيفته أيام الثورة العرابية وشهد أحداثها إلى أن عاد من الإسكندرية إلى القاهرة بمعية الجناب الخديوى، وكان من بين الذين كوفئوا على ولائهم لسموه فزاد مرتبه إلى عشرين جنيهاً ومنح النيشان المجيدى والنجمة المصرية التى وزعها توفيق على أنصاره الذين أخلصوا له إبان محنته، وفى سنة ١٨٨٥ سافر إلى أوروبا لإتمام دراسته

فى فرنسا ولم يعد إلى مصر إلا عام ١٨٨٩م. وهنا يتوقف أحمد شفيق عن سرد سيرته الذاتية ليروى حوادث الفترة الخطيرة التى شهدتها مصر منذ أواخر عهد إسماعيل إلى نهاية الثورة العرابية وبدء الاحتلال البريطاني. «وهى حوادث شاء القدر أن أشهدها عن كثب وأن أتمكن من الإطلاع على كثير من وقائعها وأسرارها».

وتشغل هذه الأحداث ٥٣٠ صفحة هى محتويات الجزء الأول من مذكرات أحمد شفيق، فليرجع إليها من يريد الإطلاع على وقائع هذه الأحداث الجسام. وقد تم طبع المذكرات كلها حديثاً في سلسلة (تاريخ المصريين) التى تصدرها الهيئة العامة للكتاب تحت إشراف الدكتور عبدالعظيم رمضان المؤرخ المعروف.

شخصية وسطية :

يبقى الجانب الخاص من سيرة هذا المؤرخ الجليل، وقد تناوله بإفاضة الدكتور عبدالعزيز رفاعى فى الكتاب الذى أصدره عام ١٩٦٥ عن حياة أحمد شفيق وآثاره، وفى رأيه أن الرجل، وإن كان ينتمي إلى الطبقة العليا فى المجتمع، ولم يلبث أن نال حظاً وافراً من الثقافة الغربية فكانت شخصيته مزاجاً بين القديم والجديد بين صفات الطبقتين، شخصية

وسطا، تغلبها النزعة المعتدلة له، فلم يكن له صفات الطبقة الأرستقراطية تماماً كالصلف والكبرياء والاستعلاء، بل عاش في غير حقد وفى بساطة واعتدال تهذبه العقيدة الإسلامية وقد جاءت شخصيته السوية ثمرة البيئة والوراثة على حد سواء يجمع بين صفات الطبقتين فى اعتدال.

وقد كان في ريعان شبابه أنيق الثياب، فى وجهه وسامة، وفى صفاته فتوة وفى حديثه عذوبة وفى ملامحه أمارات النعيم وفى إشارته أبهة المتصلين بالبيت المالك، ورشاقة المتحلين بآداب السلطان، فلما هجمت عليه أمارات الشيخوخة من أثقال الحوادث، أخذت تلك الصفات تتصوح ولكن دون أن تفقد ملامحها.

كان تفكيره ينم عن ذكاء، وفى نزوعه لا يميل للطفرة ولا بالثورة بل بالتطور على أساس انتقائى، وقد عاون ذكاؤه، وذاكرته الواعية على خدمة الأجيال بما خلفه من مذكرات ومؤلفات، وكان يلازمه شعور بالذات فى إطار الشعور بالجماعة ولكن كانت تغلبه النزعة المعتدلة.

ولعل أبرز شئ فى هذا هو ذلك الشعور الذى كان يلح عليه بالتعبير عنه، فى طرقه غير المطروق من الموضوعات بصورة سمت فوق حد الاعتدال ثم تكريس حياته لكتابة

المذكرات الشخصية يساعده استعداده فى ذلك، ليبقى فى سمع الأجيال، خالداً ما بقى أثره يحكى دور الجبرتى، ولكن فى العصر الحديث.

وكان أبرز ما يبدو منه إيثاره الحسنى والخضوع للحق ومروءته ثم إحسانه المستور وكثيراً ما كانت تدفعه أريحيته ومروءته ومكانته لاستخدام مسعاه لدرء أى كرب قد يتعرض له أحد ممن عرفهم من ذوى المكانة من المصريين.

وكان رجل إحسان، كما كان رجل مروءة، وبالرغم من أنه كان يبدو بميله إلى القصد فى صرف المال، اعتماداً على ما كان يرى فى مظهره من الصدوف عن مظاهر الأبهة والبذخ، فإنه كان من هؤلاء الذين ينفقون المال عن طيب خاطر، فقد كان موقفه من بعض ضحايا إحدى الفتن التى حدثت فى الأزهر والتى ترتب عليها أن فصل منه بعض أهله موقفا كريماً، فقد كان بعضهم رقيق الحال، وكان شفيق يمدهم بالمال عن طريق بعض أصدقائه.

وكان الرجل وسطا فى عاداته، بقدر ما كان فى نظرته نحو المجتمع، فى إعطاء ذاته حقها من الوجود، فى غير الإضرار بعلاقته بغيره. فكان لا يشرب الخمر لعلمه بضررها ولا يدخن ولا يتعاطى القهوة إلا القليل ممزوجاً باللبن لما كان

يعلمه من تأثيرها السيئ فى الأعصاب ومثلها بقية المنبهات، ولا يسرف فى ملاذ الحياة فلم يكن نهماً فى أكله ولا فى غيره. وكان يتوجع لدخول بعض عادات الغربيين فى أساليب الحياة الشرقية وكان يتمنى لو سلم هو وسلم الكثيرون وسلمت حياة المسلمين من تأثير هذا التيار الجارف من ناحية الحياة الغربية لاعتقاده أن فى التقاليد الإسلامية الصحيحة ما يكفل الخير لكيان الأسرة وسلامة الأخلاق والحياة المطمئنة. وكان حريصاً على وقته فكان يشغله بعمل يستكمل به الناقص من المشروعات، وأحياناً كان يشغله برياضة المشى.

وكان من عاداته السير لمسافات كل يوم ثم اليقظة مبكراً، وكان هذا الرجل الميال للترفيه عن القارئ، بعض الأحيان يصف «رقصة القلة» فى معرض باريس، ويسلك مسلك الرجال فى كل الأحوال كما يتجلى من موقفه من الخديو عندما شاء السير وأهدافه فى الأوقاف بما يمس كرامة شفيق وفى غير ذلك.

وكان جم النشاط لا يكل حتى فى سن الشيخوخة، ولا يمل ذهابا وجيئة وترحالا وجدلا وحواراً، ظل هكذا طوال حياته، حتى بعد أن ترك حياته الرسمية إلى الأعمال الأدبية والثقافية حتى إذ بلغ الستين شاء إقامة دار راحته فى

شيخوخته، يستقر بها وتكون مركز لقاء هادئ بينه وبين أصدقائه ومحبيه.

اختار قطعة أرض فى شبرا فأنشأ بها ما عرف «بروضة شفيق»، وقد بلغت ساحة الروضة ٣٣ فداناً ونصفاً تقريباً، وقد أقام قصره بين هذه المساحة الواسعة التى حوت ألواناً من الأشجار، واتخذ لقصره بينها ممراً من الأشجار الوارقة، من البرتقال والموز والمشمش والتفاح وعدة من الأزهار. فى هذا القصر كانت نهاية المطاف له، فيه استكمل نشاطه، وفيه كان يقابل أصدقاءه ويقيم لهم الولائم والحفلات، كان يجمع حوله فى القصر أصدقاءه من الأوفياء، ويتناول معهم أحاديث متناثرة من أحلام الرابطة الشرقية إلى غيرها والنيل يجرى بجوارهم رياناً مباركاً وذكر الله يعطر ماكانوا ينشقونه من هواء عليل عاطر.

ولقد ظل بادى النشاط حتى بعد أن أتم نشر مذكراته فى نصف قرن، بعد نشر حولياته السياسية رغم شيخوخته، وفقدانه بصره فكان يغذى بعض الصحف فى إثر الأخرى بالمقالات حول بعض الموضوعات الثقافية.

ولقد ظل فى أيامه الأخيرة مهتماً بجمع الوثائق والمستندات وأصول المذكرات التى تم طبعها لكى يودعها

مكاناً أميناً تمهيداً لإهدائها لدار الكتب حيث تحفظ هناك أصلاً خطياً لما كتب من مذكرات، بيد أنه كان حريصاً على سرعة إنجاز هذا العمل لشعوره بالشيخوخة.

ويصف الدكتور عبدالعزيز رفاعى الصفحة الأخيرة من حياته: لم تلبث هذه الشيخوخة أن نالها المرض إثر إصابته ببرد خفيف لم يعبأ به وأثر خروجه فى بعض الزيارات فى ٣ أكتوبر سنة ١٩٤٠م وأول شهر رمضان سنة ١٣٥٩هـ. وبعد إفطار ذلك اليوم ذهب يحيى أقاربه ومعارفه فى مصر والمعادى، وكأنما كان يودعهم الوداع الأخير، إذ أنه لم يلتق بهم بعد ذلك لاشتداد المرض عليه.

واستمر المرض فى شدته، فاستدعى قومسيوناً من الأطباء المصريين والأجانب فقرروا بأن الأمل فى شفائه ضئيل، وبقى بعد هذا يعانى آلام المرض فى غيبوبة مستمرة حتى توفى فى الساعة الحادية عشرة والنصف من مساء يوم ١٥ رمضان الموافق ١٧ أكتوبر سنة ١٩٤٠م وحوله أنجاله وأقاربه وبعض أخصائه فنعته الصحف الكبرى، وقد شيعت جنازته فسارت فيها جموع عدة يتقدمها العظماء والعلماء والصحفيون والأثرياء وعارفو فضله ومجده وقد وافته المنية عن ثمانين سنة مليئة بالنشاط والكفاح.

سليم بك قبطان .. مكتشف منابع النيل

إذا كان المصريون القدماء قد نظروا إلى النيل نظرة تقديس حتى أطلقوا عليه اسم الإله (حابى) فإن شغف المصريين المحدثين بالنيل دفعهم إلى اكتشاف أسرار المحبوب وتحديد ملامحه والجهات التى ينبع منها، لقد أدركوا ـ بفعل التطور الدينى والعقلى ـ أن النيل لاينبع من الجنة كما كان يتصور الأقدمون.. وإنما ينبع من جبال ووهاد ووديان وروافد تحفر مجراها قبل أن يضنيه المسير.. ويلقى عصا الترحال فى مصر.. حتى إذا جاء محمد على ـ مؤسس مصر الحديثة ـ بدأت التطلعات إلى كشف منابع النيل كجزء من مشروعه الكبير لتأسيس دولة عظمى تمد ذراعها الحضارية والعمرانية إلى أقاصى القارة الأفريقية.

فى عام ١٨٢٠ ميلادية اتجه محمد على إلى فتح السودان. وأرسل حملة بقيادة ابنه (إسماعيل) لهذه المهمة،

ويسير على نفس الخطى التى سار عليها ملوك مصر العظام منذ تحوتمس الأول الذى توغل فى أعماق القارة حتى منطقة البحيرات. ولم يفعلوا ذلك إلا إيمانا منهم بوحدة المصير بين شمال الوادى وجنوبه، فكلاهما جزء لايتجزأ من هذا الوادى، وكلاهما يكمل الآخر ولاغنى له عنه، فمصر لاتستطيع أن تقف على قدميها منفصلة عن السودان، والسودان أيضا لايستطيع أن يقف على قدميه منفصلا عن مصر، وإذا انفصلا يفقد كل منهما كيانه، ويصبح إقليما تنقصه مقومات الدولة.

ما إن استقر الأمر لمحمد على فى السودان، حتى التفت إلى تأسيس مدن حديثة لتكون مبعثا للحضارة والتقدم، ومراكز تنطلق منها إشعاعات النور والمدينة فأنشأ مدينة الخرطوم عند النقطة التى يلتقى فيها النيل الأزرق بالنيل الأبيض فى شكل يشبه رأس خرطوم الفيل، وصارت ملتقى القوافل التجارية القادمة من أنحاء السودان أو الواردة إليها من مصر، وازدهر فيها العمران حتى أصبحت من أعظم المدن التجارية فى افريقية، وقاعدة للرحلات وحملات الكشف الجغرافية والعلمية ومرسى للسفن النيلية التى تنتقل فى أنحاء النيل الأزرق والنيل الأبيض. ولقى الرحالة الأوروبيون تشجيعا من محمد على على ارتياد مجاهل القارة، فقاموا بهذه المغامرات تحت

رعـاية جنوده وفى حـمـايتـهم. وينقل الرافـعى عن المسيـو «دبهيران» فى كتابه «السودان فى عهد محمد على» أن محمد على بإنقاذه الرحلات والبعثات لاكتشاف منابع النيل قد حقق الأمل الذى كان يطمح إليه علماء الجغرافيا وكافة رجال العلم فى عصره، وقال عن إبراهيم باشا أنه شديد التطلع إلى تحقيق هذه الغاية، وأنه أعد لذلك حملة من مراكب مسلحة وعدد كبير من القوارب الخفيفة التى تستطيع أن تمضى فى النهر بسهولة دون أن تعترضها الشلالات. وستكون وجهة هذه العمارة النيلية أن تنحدر فى النهر وروافده حتى تصل إلى منابعه.

وبدأ تنفيذ حملة الكشف بأن عهد محمد على بهذه المهمة إلى البكباشى المصرى محمد سليم بك القبطان، أحد ضباط البحرية المصرية، وجعل تحت تصرفه قوة من الجنود وعمارة نيلية من المراكب، وقام القبطان بثلاث حملات متعاقبة فيما بين عامى ١٨٣٩ ، ١٨٤٢ وانتهى إلى نتائج كانت موضع إعجاب علماء الجغرافيا فى العواصم الأوروبية.

معلومات شحيحة:

* والمعلومات الشخصية عن هذا المكتشف المصرى، شحيحة، حتى أن المؤرخ عبد الرحمن الرافعى وهو يسرد

وقائع الحملات الثلاث فى كتابه «عصر محمد على» لم يقدم لنا أى معلومات عن شخصية محمد سليم القبطان، وقد سد هذا النقص الدكتور نسيم مقار فى الكتاب الذى أصدره عن القبطان فى طبعته الأولى عام ١٩٦٠ تحت عنوان (جهود مصر فى الكشف الجغرافى) وهو يعترف بأن تاريخ النشأة الأولى لمحمد سليم القبطان يكتنفه الكثير من الغموض، والذين عاصروه أو رافقوه في هذه الحملات الكشفية من الأوروبيين لم يتعرضوا كثيرا لنشأة هذا البطل فى الكتب والتقارير التى سجلوا فيها وقائع الكشف، وإن كان أحدهم ـ وهو المهندس الألمانى فرن الذى رافقه فى الحملة الثانية ـ قال إن كل ما يعرف عن نشأة القبطان أن أصله من كريت، وأنه حضر إلى مصر واندمج فى المصريين واختلط بهم حتى صار مصريا، ثم التحق بالبحرية المصرية على عهد محمد على حيث عمل ضابطا بحريا فى ترسانة الاسكندرية .

أما عن صفاته الشخصية وخصاله الخلقية فقد أمكن رصدها من خلال التقارير التى كتبها مرافقوه عن سلوكه فى أثناء سير الحملات مع المهندسين الأوروبيين، والضباط والجنود المصريين والسودانيين، وكذلك مع القبائل والجماعات الزنجية المختلفة التى كان يلتقى بها فى طريقه، ويستنتج منها

الدكتور مقار أن الرجل قد توفر له الكثير من الصفات والخصال الحميدة إلى جانب كفايته فى مجال عمله كضابط بحرى، ولولا ذلك ما عهدت إليه الحكومة المصرية وقتئذ القيام بهذه المهمة العظيمة دون سائر الضباط نظرائه أو من هم أعلى منه مرتبة، بل لو يكن سليم قبطان ضابطا بحريا ماهرا خبيرا بشئون الملاحة خبرة واسعة، متميزا بحسن تصريف الأمور والكياسة فى معاملة الناس - وهو ما ينبغى توافره فى الرحالة والمكتشف الذى يصادف شعوبا وقبائل مختلفة الطباع والعادات - لما أسندت إليه قيادة حملات الكشف فى النيل الأبيض، ومناطق النيل العليا للمرة الثالثة، الأمر الذى يدل على عظم ثقة المسئولين به وبكفايته الإدارية والفنية.

يقول عنه رفيقه المهندس الألمانى (فرن): كان سليم طموحا راغبا فى الشهرة، تواقا إلى أن يحقق لنفسه مجدا كبيرا وفخرا عظيما من وراء عمليات الكشف، وكان - على غير ما كنت أعتقد - شجاعا ذكيا نشطا مدركاً لخطورة المنصب الذى يتولاه، وعظم المسئولية الملقاة على عاتقه، بصيرا بكل ما يحيط به، وإن لم يسلم من بعض الأخطاء والهفوات التى ترجع إلى طبيعته الشركسية الأولى، إلا أنه كان يمتاز باللباقة، فهو يتحفظ فى كلامه مع رفقائه المهندسين الفرنسيين،

ويحرص أشد الحرص على استشارتهم فى المسائل الهامة، واحترام آرائهم حتى لايثير غيرتهم وحفيظتهم عليه، إذ كان يدرك أن الوفاق مع هؤلاء المهندسين والعلماء الأجانب فى الحملة، أمر لازم لإنجاح مهمتها الكشفية.

* كان متدينا:

ولابد أن تؤخذ شهادة هذا المهندس الألمانى «فرن» فى موضع الاعتبار إذا عرفنا أخلاقه الشراسة والحقد والغيرة، وكان نصيب زملائه الفرنسيين من شتائمه وسبابه نصيبا كبيرا فى كتابه عن الحملة.

ولاحظ آخرون أن سليم قبطان كان متدينا حريصا على أداء فريضة الصلاة وصيام رمضان، والاحتفال بعيد الفطر حين حل موعده أثناء الحملة. وتظهر نزعته الدينية فى هذا الاستهلال الذى ابتدأ به تقريره عن الحملة الأولى «بالشكر لبارى النسم، ومجزل النعم، على ما زين به البلاد السودانية من بديع المخلوقات وغريب الكائنات، والصلاة والسلام على خير خليقته وآخر رسله أبى القاسم محمد وعلى آله وصحبه أجمعين إلى يوم الدين» ومع إن الإسلام يبيح الفطر للصائم أثناء سفره، إلا أن سليم قبطان صام رمضان حيث كانت الحملة تأخذ طريقها جنوبا فى مجرى النيل الأبيض، ولما حل

عيد الفطر احتفل بهذه المناسبة الدينية احتفالا لائقا والحملة وسط النهر، فأمر الجنود بإطلاق المدافع من جميع السفن والمراكب وترفع جميع الأعلام على الساريات، وكذلك في عيد الأضحى، فقد أطلق واحدا وعشرين مدفعا ثم أدى مع الضباط والعساكر صلاة العيد على ظهر المراكب والذهبيات

* ويحب الشورى:

وفوق ذلك - يقول الدكتور سليم مقار - تحلى سليم قبطان بصفات طيبة أملتها عليه نزعته الدينية، واقتضتها طبيعة عمله، ومنها الحلم والجنوح إلى السلم، ففي أثناء سير الحملة كانت تصادفه أحيانا، على شاطئ النيل الأبيض، بعض الجماعات التي تميل بطبيعتها إلى الشر، وتقوم بمظاهرات عدائية نحو رجاله، فكان لا يسارع بإطلاق النار عليهم، وإنما يبادر بإظهار نواياه الحسنة نحوهم، فيرسل إليهم ترجمانه ليبلغهم رغبته في مقابلتهم ليتحف كل فرد منهم ببعض الهدايا، كذلك لم يكن سليم قبطان يميل إلى الاستبداد، وإنما يميل بطبيعته إلى الشورى، فحين كانت حملاته الكشفية في أعالي النيل تتعرض للمخاطر وتواجه المواقف الحرجة، كان يبادر بعقد المجالس من ضباطه ومهندسيه للتداول في الأمر، ويصدر قراره بناء على رأى الأغلبية، ولا يصدر أمراً أو حكماً

قبل أن يقف على آراء ومقترحات جميع رجال الحملة من الضباط والمهندسين وحتى الجنود العاديين، ويترك باب المناقشة مفتوحاً تستقر الأغلبية على رأى، والواقع ـ كما ذكر فرن ـ كان سليم يدرك أن وحدة الصف واتفاق الكلمة خير ضمان لنجاح المهمة الكشفية فى هذه الأصقاع النائية.

ولكن كان سليم قبطان ـ فى نفس الوقت ـ حازما وصارما إلى درجة ملحوظة فى تطبيق القوانين واللوائح على كل من يتهاون فى عمله، أو يغتصب من أحد الأهالى شيئا مهما كان تافها، ومجمل القول فإن هذه الصفات والمقومات الشخصية للبكباشى سليم قبطان كانت من أسباب نجاح حملته الكشفية التى جعلت اسمه خالدا على مر العصور بين الرحالة والمكتشفين وسيظل اسمه مقترنا باسم النهر الخالد.

* أهداف الكشوف:

بدأ الإعداد للحملة الكشفية الأولى بخطاب بعث به محمد على إلى حكمدار السودان خورشيد باشا يلومه فيه على التباطؤ فى الرد على البيان الذى طلبه محمد على عن المهمات المطلوبة لإنقاذ الحملة بقيادة خورشيد. ومما جاء فى هذا الخطاب: «سبق أن سألناكم عن مقدار العسكر اللازمة للذهاب

إلى منبع النيل إذا لزم الذهاب إليه، وعن الوجه الذى يمكن الوصول به إليه، فأنت ضربت صفحا عن الإجابة على ما سألتك عنه فيا خورشيد إن عظماء الناس الذين جاءوا إلى هذه الدنيا ثم ذهبوا عنها كل واحد منهم ترك أثرا فيه بقاء اسمه، وعلو شأنه وشهرته ومضى، فأسماؤهم تذكر بالخير حتى الآن وإلى يوم القيامة على ألسنة الناس، فما زرعوه ظاهر للعيان، وأما الذين جاءوا أو مضوا من غير أن يبقوا لهم أثرا يذكرون به، فإن حالهم معلومة لا تحتاج إلى إفصاح عنها، فشرط الإنسانية رعاية طريق الأسلاف المستحسنة، فلذلك أريد منكم أن تأخذوا عدداً من العسكر وتقوموا ذاهبين إلى ذلك المحل وبسرعة زائدة. متوكلين على الله فى حركتكم هذه، وأن تكسبوا الثناء والشهرة كما كسبها الأسلاف». ونفهم من هذه التعليمات الصريحة كم كان محمد على يقتدى بعظماء التاريخ الذين خلدوا أسماءهم بما قدموا من أعمال جليلة، وكم كان تواقا إلى إنجاز عملية الكشف باعتبارها عملا علميا وحضاريا يكسب صاحبه المجد والشهرة والثناء على مدار التاريخ. ولا يغفل محمد على عن ربط هذا العمل الكشفى بمشروعه الكبير وهو أن يجعل من مصر دولة عظمى تقود حركة التقدم والتنوير، فيقول لخورشيد باشا فى نفس الرسالة:

«وإن مصر والحمد لله آخذه في الازدهار والشهرة في آفاق البلاد يوم بعد يوم، فلازم عليكم أن تبذلوا قصارى جهودكم لإعلاء شأنها، فإذا نجحت هذه المصلحة على يديكم فهى نعم المطلوب» .

والظاهر أن الظروف الصحية لخورشيد باشا حالت بينه وبين قيادة الحملة، وشاء القدر أن يدخر لهذا العمل التاريخي البكباشي محمد سليم بك قبطان فلما استقر له الأمر، وتم إعداد الحملة، جمع محمد علي كل المشاركين فيها، وشرح لهم أهداف الحملة ويتبين منها أن الغرض من اكتشاف منابع النيل ليست الغزو أو الاستعمار أو البطش بالأهالى كما فعل الأوروبيون، ولكن الأخذ بيد الشعوب الأفريقية إلى آفاق التقدم فهو يخاطب قائد الحملة بهذه الوصية:

«وما عليكم يا قبطان سليم إلا أن تطلب ما تريد من الجنود والقوارب والمؤن التى تلزمكن، وسوف يصلك كل ما تطلب، إننا لانذهب إلى تلك الأقاليم كغزاة أو فاتحين فكونوا حازمين، وقدموا الهدايا التى تليق بى، واجتهدوا فى استرضاء تلك الشعوب المتبربرة التى ستجدونها، وتوصلوا إلى صداقتها ومحبتها بالهدايا التى تقدمونها إلى رؤسائها، أدوا واجبكم وأتعشم أن أكافئ كلا منكم على أعماله وعلى ما قدمت يداه» .

* سير الحملات :

* فى يوم ١٦ نوفمبر ١٨٣٩ تحركت الحملة الأولى برئاسة سليم بك قبطان لاكتشاف منابع النيل الأبيض. وكان بصحبته المهندس الفرنسى (تيبو) متخفيا تحت اسم (إبراهيم أفندى) ومعه ٤٠٠ جندى تحملهم ثمانى ذهبيات مسلحة كل واحدة بها مدفعان، ومركبين آخرين و١٥ قاربا، وبها من الذخائر والمؤن ما يكفى الحملة لمدة ثمانية أشهر، فلما وصلت إلى بلدة«العيس» حالت الموانع الطبيعية دون تقدم العمارة فى النهرة، فعادت إلى الخرطوم، وفى عودتها عرجت بنهر «سوباط» لاكتشافه وانحدرت فيه إلى أن حالت ضحالة النهر دون تقدمها فرجعت إلى الخرطوم بعد رحلة استغرقت ١٣٥ يوما. وفى التقرير الذى وضعه سليم قبطان عن هذه الحملة وضع جدولا بالأرصاد الجوية هناك، فكانت أول مرجع علمي عن الأحوال الجوية فى باطن القارة، ونشر التقرير فى مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية فحاز إعجاب العلماء الفرنسيين، وكتب عنها مسيو (جومار) : «أن هذه الحملة بقيادة ضابط مصرى وغايتها الاكتشافات الجغرافية هى أول حملة من نوعها، والتقرير المدون به يوميات الحملة محرر بالأوضاع التى يحررها الرحالة الأوروبيون، ولا جرم أن هذه الرحلة هى إحدى ثمرات الحضارة التى دخلت مصر منذ ربع قرن» .

والمصريون يعرفون مسيو جومار منذ كان عضوا فى البعثة العلمية التى رافقت الحملة الفرنسية على مصر، وبعد عودته إلى بلاده اختاره محمد على ليكون رئيسا للبعثة المصرية التى كانت تتلقى العلم فى فرنسا.

أما الحملة الثانية فتحركت من الخرطوم فى ٢٣ نوفمبر ١٨٤٠ فى نفس اتجاه الحملة الأولى بالنيل الأبيض، وتخطت العقبة التى توقفت عندها الحملة السابقة حتى بلغت جزيرة (جونكر) التى تبعد عن جنوب الخرطوم ١٠٨٠ ميلا وتقترب من البحيرات التى ينبع منها النيل ولكنها لم تستطع متابعة سيرها بسبب هبوط مجرى النيل وكثرة الجنادل والشلالات، فعادت إلى الخرطوم.

* صاحب الفضل:

لم تقتنع حكومة مصر بالكشوف الجديدة التى حققتها الحملة الثانية لأنها كانت راغبة فى اكتشاف منابع النهر ذاتها، وشجعها على ذلك وصول الحملة إلى مشارف البحيرات فتحركت الحملة الثالثة يوم ٢٧ سبتمبر ١٨٤١ بقيادة سليم بك نفسه، لأن محمد على كان شديد الثقة بكفاءة هذا الضابط المصرى، فلما بلغت نفس المكامن الذى بلغته الحملة الثانية قفلت راجعة إلى الخراطوم بعد أن عانت الأهوال والمشقات

وفقد الكثير من رجالها. ذلك أن حكمدار الخرطوم أحمد باشا أبو ودان قصر في تجهيز الحملة، ومع ذلك فقد أثمرت ثمرات طيبة، وكتب مسيو جوتييه دارك: «في الوقت الذي تبدي فيه الحكومة الفرنسية اهتماما كبيرا بالعلوم الجغرافية، فإن الحكومة المصرية تتحمل نفقات حملة أرسلت في بلاد بعيدة لتتبع مجرى النيل الأعلى حتى منابعه وقد كشفت هذه الحملة في أثناء سيرها عن عدد عظيم من الشعوب التي ظل العالم يجهل أمرها حتى يومنا هذا، وفضلا عن ذلك فإن الفوائد العظيمة التي تجنيها التجارة من فتح هذا الجزء من العالم، لايمكن تقدير قيمتها بحال من الأحوال»

وإذا كان الفضل في حملة الكشوف الجغرافية يعود بالدرجة الأولى إلى عزيز مصر «محمد علي باشا» وسعة أفقه، وعمق مداركه، وضخامة طموحاته، فسيبقى شرف التنفيذ لهذا الضابط المصري محمد سليم قبطان الذي حفر اسمه في سجلات التاريخ إلى جانب المكتشفين العظام، وما كان يتمتع به من كفاءة نادرة وأخلاق حميدة . وأضاف إلى تاريخ العلوم والحضارة صفحات مشرقة يفخر بها المصريون.

الفهـــرس

صفحة

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٨٠٧٨ / ١٩٩٧

I.S.B.N 977 - 01 - 5326 - 5

مكتبة الأسرة



عدد ممتاز
بسعر رمزى جنيهان
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

■ **جمال بدوى**

- ولد فى الغربية ١٩٣٤.

- تخرج فى كلية الآداب، قسم الصحافة.

- عمل صحفيًا فى مؤسسة «أخبار اليوم»، ومديرًا لتحرير جريدة «الاتحاد» بالإمارات العربية، مديرًا لتحرير جريدة «الوفد»، ثم رئيسًا لتحرير جريدة «الوفد».

- من أعماله : «الفتنة الطائفية فى مصر»، «مصر من نافذة التاريخ» ، «نظرات فى تاريخ مصر»، «شهداء وضحايا من تاريخ الإسلام»، «مسافرون إلى الله بلا متاع»، «تاريخ الفكر السياسى فى الإسلام»، «الشيعة ...

